د . شاكر مصطفى

الابعاد التاريخية

لأزمة التطور الحضاري العربي

لماذا تطلب وفاق العرب مع العصر كل هذا الوقت الطويل ، ودون كبير جدوى ؟ هذا السؤال المصيري النازف كالجرح في ضمير كل عربي ملتزم اذا كان ما يزال يأخذ يوما بعد يوم ابعادا ماسوية متزايدة فلانه قد مضت على ارتطام هذه الامة بالحضارة الحديثة وبمعطياتها وآلائها سنون بعيدة بعيدة . كتلة الاقاليم العربية مضت عليها الفترة الزمنية الكافية لتكون في مستوى العصر وتكنولوجيته وفيضه الحضاري . معظمها ، على الاقل ، انطلق قبل الصين التي بدأت منذ ربع قرن ، بعضها قبل روسيا التي بدأت منذ سبعين سنة ، وبعض قبل اليابان التي بدأت منذ مائة سنة . ومع ذلك فهذه الامم وصلت . كلها وصلت . بينما لم يصل اي اقليم عربي طليعي الى شيء بعد ... ماسوية السؤال انما تنبع من احتمالات الاجوبة عليه : فهل وصلت الامة حقا مرحلة الشيخوخة فهي الى الادبار والعقم الحضاري ؟ ام اضاعت الطريق ؟ واني الطريق ؟ ام ثمة من الامراض المقعدة في تكوينها العام ما يشل المفاصل ان تسير السير الذي يقتضيه ايقاع العصر ؟ « تلك هي المسالة » !

واذا كانت ابعاد التحليل لهذا التخلف تحتمل من السعة والتشعب ما تنساح معه على آفاق الحياة كلها من فكرية واقتصادية واجتماعية وسياسية ودينية ... فان الباحث في هذه الافاق ما ان يحاول تلمس الجذور حتى يجد نفسه فجاة في رحاب التاريخ ... وبالمقابل فان الباحث عن الابعاد التاريخية لهذا التخلف ، ما ان يحاول الاستقصاء والشمول حتى يجد نفسه فجاة بدوره في عدوان مستمر على حقول هذه الابحاث الاخرى التي تتناول تلك الآفاق بالدراسة ... ولا مناص من هذا العدوان ما دامت البنى البشرية تسير عامة في مراحل حياتها في عملية دياليكتيكية الحدود . التنافي والتواصل هما الحدان اللذان يحكمان معا المسيرة . ففي الوقت الذي تفرز فيه مرحلة تاريخية معينة عناصر المرحلة التالية فان هذه المرحلة بدورها تنفي سابقتها وتناقضها ولكنها وهي تنفيها وتنقضها تكون محكومة بها وبحدودها برابطة من البنوة تكاد من الحميمية ان تكون نوعا من ارث « البيولوجي » وهكذا فالحاضر العربي ، وهو ركيزة الغد ومنطلقه ، هو بالرغم منه ، وفي جانب الاصالة والهوية من جوانبه ، حصيلة تلك البقايا الحية والرواسب الميتة ، المرة والحلوة على السواء ، التي افرزها ذلك الماضي الطويل الذي تجره الامة العربية وراءها كالقطار الطويل ...

ان اهمية البحث في الابعاد التاريخية لازمة التطور الحضاري العربي انما تاتي من ان اللاتاريخية في الفكر تعني العمى عن ادراك ابعاد الواقع في الوانه وخطوطه ومحركاته ، تعني رؤية مسطحة ذات بعدين لواقع موضوعي ذي ابعاد في المكان والزمان والانسان والحياة لا تكاد تدرك كثرة وتعقيدا ...

ولعلنا قبل ان نطلق الشراع للغوص ملزمون برسم بعض الحدود ونقاط الاحتياط والملاحظات :

١ ـ فنحن لا نفهم التاريخ في هذا البحث على انه الادب التاريخي وكتابة التاريخ اي كتقنية من تقنيات المعرفة ، ولا ننظر اليه في الوقت نفسه على انه مجموع احداث الماضي الذي انقضى والحروب والعقائد والجماجم التي سفحت ولكن ننظر اليه كجذور للواقع العربي القائم وكجزء حي من هذا الواقع . وما نذهب في تحليله ـ ان ذهبنا ـ مع الزمن او مع المكان او مع الافكار ، الا كوسيلة لكشف الابعاد العميقة في الحاضر العربي ...

واذا اختلطت كلمة تاريخ مع كلمة التراث احيانا فانما نعني بالتراث مرتسم ذلك التاريخ في الحياة والحصيلة (المادية او الفكرية) المؤثرة منه في مسيرة المجتمع العربي .

٢ ـ ليس التخلف سمة خاصة بالمجتمع العربي . ثلاثة ارباع شعوب الارض تشاركه ذلك لكن العناصر التاريخية لهذا التخلف قد تكون مختلفة لدى العرب عنها لدى الشعوب النامية الاخرى ومن هنا تاخذ الدراسة لهذه العناصر اهميتها الخاصة لانها كشف عن الميزات الخاصة للتطور الحضاري العربي بما فيه من ارض موات ومن امكان عطاء . انها عملية نبش في الجذور . كل الجذور . هي رحلة في النعميات والجراح معا من الماضي . ارث التاريخ ليس كله في كفة المساوىء ومن دنيا التخلف . على اننا ملزمون بكشف جانب الجراح منها فقط ، جانب السلب وانقال الرصاص التي تمسك بالعجلات الى الارض ... وبالرغم من ان التاكيد على ذلك اشبه بدفع ابواب مفتحة على مصاربعها الا اننا نضعه بين المعطيات الاولى ونضيف اليه :

٣ ـ انه ليس ثمة ما يمنع بعدا من ابعاد التخلف التاريخية من ان يتحول بمعاناة جديدة له او بفهم جديد الى بعد حضاري من ابعاد الغد ... ان التخلف يستند الى عناصر مطلقة . الى لعنات ابدية ، متصلة بنقائص ازلية . وانما هي عوامل شلل ولعنات نسبية دوما في اطار العصر التي توجد فيه ومن خلال الدور المعطي لها في الناس ، وبمستوى المعاناة الانسانية التي تتعرض لها . واذا لم يكن ثمة من عنصر في التاريخ هو عنصر تخلف مطلق او ثابت ، فانا لن ننظر الى العناصر التاريخية في التخلف الا من خلال منظور متكامل للمستقبل ،

الا من خلال المنظور الذي يقابلها للتطور الحضاري . ليس من بعد يمكن ان يعتبر عامل تخلف الا بمقدار ما يعمل ضد عوامل التطور المستقبلية وبمقدار ما ينعكس منه على الغد من قيود حجرية .

٤ ـ ويتفاوت اثر هذه الابعاد التاريخية التفاوت الواسع في الزمان وفي المكان . فبعضها قديم قدم هذه الامة لارتباطه بقدرها الجغرافي او التكويني ، وبعض حديث طارىء من صنع بعض الصور والاحداث المتأخرة وبعضها يظهر فترة ثم يغيب او يختلف حدة وضعفا حسب الاجيال والمعطيات الحياتية الاخرى ... كما انها تتفاوت حسب اقاليم الوطن العربي الاوسع وظروف تاريخها واتصالها بالحضارات الاخرى ، فمرتسمات التخلف التاريخي في اقليم هي غيرها في الاقليم الاخر والوان بعضها في هذه البطاح غيرها في تلك الجبال او الصحاري او الخلائط البشرية .

٥ ـ وعلى المستوى نفسه فان عناصر التخلف ، ان كانت قديمة وتاريخية ومتفاوتة ، فان ذلك لا يعني انها ميتة . ولكن يعني انها تعمل بشكل قديم . لا يعني انها غير حية الحياة الواسعة ولكن يعني ان هذه الحياة تجري فيها ضمن القواقع المتكلسة والارضية المتحجرة والمعطيات الموروثة . وانها تدافع عن نفسها ، بل وتهاجم احيانا ، من وراء قشرة سميكة اشبه بأسوار القلاع الوسيطة ، حجارتها الجهل والتقليد والامثال والاعتياد الاجتماعي والقوالب الفكرية الجاهزة وظلال التقديس وموروث الاحترام للقيم ...

٦ ـ ونحن لا ننكر ابدا ولا يجوز ان ننسى ان العديد من هذه العناصر التاريخية في التخلف قد اخذ يتحول تحت ضربات الحياة الحديثة وايقاعها الحار . بعضها يموت مرغما على هون وبعض يقف على بقايا الارض القديمة التي ما تنفك تؤتكل باستمرار وبعض يتطور بدوره ايضا . يحاول ان ياخذ من العصر ويعطيه . ولكن هذا الاخذ والعطاء يسيران ببطء لا يتفق مع تواتر العصر نفسه وسرعته ومنطقه ... وتضاف عقابيل التلاؤم القاصر الى عناصر التخلف نفسها لتزيدها تعقيدا في الفكر والاجتماع والسياسة والدين على السواء ...

٧ ـ ثم ان عناصر التخلف في التاريخ اعقد بكثير من ان تكون ذات بعد واحد . انها مشتبكة الحدود ، متعددة الصور ... خطوطها تتقاطع . تعوج . تلهث . تصطدم . تذهب في كل اتجاه وفي لا اتجاه . لانها نتيجة عوامل بالعشرات وظروف تاريخية شتى في فترات زمنية متعددة واماكن ليست اقل شتاتا . وادراكها على هذا الاساس يكشف مدى المجازفة في محاولات التبسيط والتعميم التي قد نلجأ اليها مكرهين بغية الاقتصار على التيارات العامة .

٨ ـ وعلى المستوى نفسه اخيرا يظهر مدى المجازفة عند الوقوع في « التجزيئية » . ان تجزئة تلك العناصر التخلفية ، وهي مجرد عملية منهجية ، يجب ان لا تحجب عنا انها في واقعها الاجتماعي ـ التاريخي وحدة . انها كل . وانها كيان واحد حي متفاعل . تشكل اجزاؤه وحدة تاريخية التكوين ان تخلفت عناصرها عن عصور شتى فقد تعانقت هذه العناصر في تفاعلات اجتماعية ـ فكرية طويلة لينسجم بعضها مع بعض ويعمل بعضها من خلال بعض ...

ولعلنا بعد هذه الملاحظات نستطيع لملمة الابعاد التاريخية في التخلف العربي في الملامح التالية التي لا نعتبرها على اي حال اكثر من محاولة اولية ...

ولعل الملاحظة الاولى يجب ان تتعلق بعلاقات الانسان العربي بالزمان . واذا كان صعبا ملاحقة هذه العلاقات من خلال الفلسفة والايديولوجيات الفكرية ، فلعل الاسهل والاقرب لموضوعنا ان ندرسها من خلال دراسة شان « التاريخ » نفسه ، ودوره في الايديولوجية العربية المعاصرة ، او في تكوين ما نسميه بالثقافة القومية والشخصية العربية والتاهيل للغد . ان ارتباط العرب بهذا الذي يسمونه تارة بالماضي وتارة بالتاريخ وثالثة بالتراث او السلف ليس كارتباط اي امة اخرى به ... وان دراسة الابعاد التاريخية للتخلف العربي لتأخذ معنى خاصا ، واساسيا ومصيريا من خلال هذا المنظور لقيمة ودور التاريخ في كيان العرب وفي ايديولوجياتهم المعاصرة .

ان بنى المجتمع العربي ـ ولعل لحضارته الزراعية اثرها في ذلك ـ هي في مجموعها بنى تاريخية التكوين ، تاريخية حتى النخاع الشوكي ، تاريخية بامتياز وبعمق مع كل ما يحمل التاريخ من جلال واهتراء وغبار خانق . اننا لا نعيش زمنين معا : الحاضر والماضي فقط ، ولكنا نعيش في الواقع ايضا ازمنة شتى من هذا الماضي نفسه . واذا كان التاريخ والتراث والماضي والسلف ... وما يتصل بهذا وذاك منها ذات ضغط خاص على الشخصية العربية وبالتالي في الفكر الايديولوجي العربي المعاصر فلانها تحتل في التكوين الثقافي القومي مكانا خاصا ندر ان عرفته شعوب اخرى ... مكانا ليس بالنادر ان يصل في بعض حدوده ، عالم التقديس والمناطق الحرام ....

ان الحضارة العربية (والتي كان الاسلام اروع اطوارها واكمل تلك الاطوار) تختلف عن الحضارة الغربية في مفهومها للزمن ومن ثم في مفهومها للصيرورة التاريخية . وانها (وهي في هذا تشبه حضارات الشرق في اليابان والصين والهند) نتاج مجتمعات قومية مكتثفة العلاقة باقدم عصور التاريخ(١). وقد اعتادت هذه المجتمعات ان تحيا مع تاريخها دوما . ان تحيا حياة اجتماعية شديدة التماسك مع الماضي ، تركيبية البنية ، وحدوية الزمان . يندمج فيها الماضي بالحاضر كل الاندماج ، وتبتلع ، ضمن معركة الاستمرار المادي ، وجدلية الوجود التاريخي ، كل التناقضات التي تخلفها العصور المتتالية . انها ترفض تفتيت الزمن الى وحدات كمية او النظر اليه كامتداد بعيد هو بالنسبة اليها حضور مستمر . الصيرورة التاريخية بالنسبة الى العرب عملية مركبة جدلية اذا امتدت عبر الاجيال فاللاحق فيها جزء من السابق متمم له ... واذا ظهر الاسلام مثلا في القرن السابع فاعلن لاقناع العرب انه « ملة ابيكم ابراهيم »ووصل الناس بهذا الشكل سواء بالنسب البيولوجي او بالرباط الروحي بما قبل خمسة وعشرين قرنا منهم واذا كرر مرات انه جاء « مصدقا لما بين يديه من التوراة والانجيل » (٢) ثم اذا حملت راية السنة والامامة في هذه الامة ، كمنطلقات للايمان واذا ظهر فيها ما يزيد على عشرة آلاف حافظ معروف واربعة الاف مؤرخ خلال عشرة قرون وما يزيد على تسعة الاف كتاب في التاريخ وهو ما لم تنتجه امة اخرى من قبل ابدا ، فان لذلك كله دون شك معناه البعيد في التكوين والنسج الفكرية وفي اقامة التركيب الوحدوي الفكري للحضارة العربية .

ولم يكن غريبا ، في النهضة العربية منذ اواخر القرن الماضي ، ان ينطلق العرب في البحث عن « الانا » الضائعة الى التاريخ . ان « الاصالة » رغم معانيها العديدة المتصلة بالابتكار والخلق الجديد والارض التي لم يمسها بشر من قبل انما ترتبط عند العربي بالتاريخ والتراثية خاصة . الجانب التراثي من الذات العربية يكاد يطغى احيانا كثيرة ، وفي كثير من اللحظات على الجانب الحي ، الحاضر ،الدارج على الارض ...

واذا كان التاريخ (او التراث) يتحول الى قضية والى قطب اهتمام خاص في الازمات الكبرى وفي فترات التحدي والحاجة الى الاتصال العميق بالذات ، فانه في المجتمعات التاريخية العتيقة التكوين ، وذات العلاقة الخاصة بالفكر التاريخي ، يأخذ اوسع ابعاده . ولقد رأينا بالنسبة الى العرب تيارا من الاندفاع وراء

---

(١) عبر الاستاذ انور عبد الملك عن جانب من هذه الفكرة في حديثه مع مجلة (الثقافة العربية ـ نيسان ١٩٧٣) .

(٢) تكرر ذكر ذلك في القرآن ثلاث عشرة مرة .

التاريخ العربي يتوازى مع حركة النهضة العربية ما بين اواخر القرن الماضي والعقود الاربعة الاولى من هذا القرن . وقد اخذ هذا الاندفاع تارة الشكل الديني لدى الجموع المتدينة التي تريد احياء عصور بعينها ورجال معنيين ضمن اطار معين واخذ تارة اخرى الشكل الرومانسي العاطفي او الشكل التوفيقي لدى التيارات القومية التي تنظر الى التراث من خلال البلور الملون والفنائية او تحاول ان توفق ما بين قيمه والعصر ... ولو بالرغم منه . كما اخذ اخيرا شكل الرفض الكامل لدى « المتغربين » فكل هذا التراث عندهم يجب ان يلقى الى النار (١) ... انه مضاد للثورة . مضاد للفهم والتكنولوجيا اليوم ومضاد للغد ... ولكن هذا لا يمنع انه بالنسبة اليهم يشكل قضية من قضايا الصدام مع الواقع ...

وقد دخل العرب منذ ١٩٤٨ عصر الهزائم (٢) التي لم تقتصر في الواقع على المستوى العسكري والسياسي ولكنها اخذت ايضا ابعادا حضارية ونفسية تجلت في الاعتراف « بالتخلف » التقني والثوري والتنظيمي والاجتماعي والعلمي وفي تلك القصائد الماسوشية التي جلدنا بها انفسنا جلدا . واذا كان عصر الهزائم هذا يقابل من قبل الجماعة العربية بالرفض وبما يمكن ان نسميه بحركة النهضة الثانية التي عبرت عن نفسها بالثورات ومشاريع التنمية والتوسع التعليمي والاتجاهات الاشتراكية ... فقد رافق هذه الحركة بدورها ردة موازية الى التراث والى تحديد الموقف العربي منه ...

وهكذا عاد التراث في الصراع الحالي القائم بين الايديولوجيات في الوطن العربي كله ليحتل مكانه الواضح في المستويات الاشكالية الاولى ...

على انه من المؤسف ان النظرة العربية للتاريخ ما تزال نظرة سكونية رجعية الاتجاه ... فنحن لا ننظر اليه على انه نقاط انطلاق ولكن حدود انتهاء . ولا على انه نسغ فقط ولكن على انه جذوع جاهزة للتعلق والارجحة . ولا ننظر اليه على انه كان يحمل الف امكان ولكن على انه ذو بعد احادي هو الشكل الذي تحقق منه ... التاريخ عندنا ، رغم زمانيته المتطورة الطويلة لا يعترف بالزمان لانه يتراكم كله في لحظة وفي مستوى مسطح واحد ... انه عندنا حتى في صورته المستقبلية محاولة لاسقاط الماضي كاملا على المستقبل ، لا محاولة التجاوز الكامل له . ومن هنا تتحدد مجموعة من الذيول والنتائج ...

ـ من هنا مثلا كان التاريخ قارب نجاة للكثيرين . مهربا من الواقع المسكين او كان غربة عن العصر بدل ان يكون اندماجا متزايدا فيه .

ـ ومن هنا ايضا تحل الاستمرارية التاريخية محل الاصالة او تتوحدان في مفاهيمنا الايديولوجية . يحل الامتداد الوحيد الاتجاه محل الانطلاق المتفجر مع كل الافاق . وتلتوي « الاصالة » لتصبح تقليدا وعودة ذليلة الى الارض الاولى كما تعود الاشجار الاستوائية لتجعل من اغصانها جذورا بدلا من ان تصبح فروعا للزهر والثمر ... « افمن يمشي مكبا على وجه اهدى ام من يمشي سويا على صراط مستقيم » ؟

ـ ومن هنا ايضا وايضا تقف مشكلة « التراث » عند العرب ، في مركز مشاكل الجدل . كل الطرق تؤدي الى « روما التراث » عند بحث الثورات ، او التقدم والتخلف او الايديولوجيات او التخطيط ودنيا الغد . تقف كقاطعي الطرق على مفترق الطرق ... لتقسم الناس الى يمين ويسار وتقدميين ورجعيين وتقليديين وعصريين ... ولتثلم السيوف وتزرع الجهود في الصحراء ... واذا لم تجد هذه المشكلة حلا نهائيا بعد ، اذا لم يتفق الفرقاء بعد على موقف شبه واحد منها فلانها ليست في الاصل « بمشكلة » ولا من المستوى الاشكالي ولكنها جزء من الهوية العربية ، جانب من الكيان نفسه ، يناقش وينظر اليه من خلال ايديولوجيات معينة فترمي عليه المعاني الدينية تارة او القومية تارة او يجري اسقاطه هو نفسه على المستقبل بهذه المعاني ، تارة ثالثة ... بينما الوضع الطبيعي ، من خلال معطيات الحضارة العربية ، ان تستوعب المتناقضات .ان تواؤم الروح العربية بين معطيات الفكر الحديث والعلوم والتكنولوجيا وبين الحفاظ على اخص ما في التراث ضمن التركيب الوحدوي القومي او التاريخي ، قد لا يكون منطق الفكر الغربي (وهو منطق ثنوي في جوهره ، يقوم على التضاد المطلق بين الوضع ونقيضه) قابلا لمثل هذه العملية الاستيعابية الصعبة التي تقوم على منطق آخر هو المنطق الجدلي التركيبي الذي يصل من الوضع ونقيضه الى نقيض النقيض والى معادلة تركيبية جديدة . ولكن تجربة اليابان ثم تجربة الصين في ثورتها الثقافية الاخيرة قد توحي عند الدراسة بالكثير . (١)

ـ ومن هنا ايضا وايضا يستمر في العقلية العربية ذلك الجناح الغيبي الممدود . ويحل (ما وراء الطبيعة) الميتافيزيك في نواح عديدة مكان الطبيعة (الفيزيك) ولا تؤخذ وتنتشر من الدين الا القيم الاستسلامية . وشعارات الطاعة والقناعة والفناء وعجز الانسان وسيطرة القدر دون القيم الايجابية الديناميكية كمبادىء العمل والمسؤولية والحرية والتعاون والعدل والتفكير في مظاهر الطبيعة وطلب العلم ... النظرة الى التاريخ من الزاوية السلبية السكونية هي التي تمنع هذه القيم من اخذ كافة ابعادها في حركية المجتمع العربي ...

ـ ومن هنا الى كل اولئك كانت تلك الانفصامية التي تعيش بين عصر نصطدم كل لحظة بحدوده وفكره وآلته وبين « تاريخ » نرتبط به في الغالب بشكل رومانسي لمقابلة عقد النقص ، ونريده على ان يلبس ثياب هذا الواقع سواء كانت فضفاضة ، ام ضيقة ! ان ما يعطي تلك الانفصامية حدودها المأسوية هي اننا في الوقت الذي نقنع فيه بفكرنا التاريخي المسكوني ، الرجعي الاحادي نواجه بالرغم منا حضارة اخرى ساحقة القوة تنظر الى التاريخ نظرة مختلفة حتى في الجذور تقوم على ايجابية الحدث التاريخي وعلى تغيره المستمر ومسؤولية الانسان المباشرة فيه ...

وننتقل بعد هذا من مستوى الفكر التاريخي وعلاقة الانسان العربي بالزمان الى مستوى الحياة العربية نفسها لنجد ـ وضمن اطار الملاحظات التي فرطت في مطلع البحث ـ ان « الاستمرار الاجتماعي » الذي تعيشه الشعوب العربية انما تحكمه عناصر عديدة تشكل في مجموعها التركيب العربي القائم ... وان لامتدادات التاريخ في هذه العناصر المكان الواسع ان لم يكن الاول . واذا تركنا جانبا اطار البيئة

---

(١) ليس هذا التوزيع سوى محاولة لتبسيط المواقف المختلفة من التراث . والواقع انها مواقف متداخلة كل التداخل واي ثمة بين المتدينين من يحاول الموقف التوفيقي او الموقف الاعتذاري عن بعض القضايا (الرق والحجاب) وان بين القوميين من يقف الموقف الرفضي ... الخ .

(٢) لا نقصد بها فقط الهزائم العسكرية امام الصهيونية في اسرائيل ولكن ايضا الهزائم امام الغرب الامبريالي الذي يسحقنا دون انقطاع بتفوقه التكنولوجي وانتاجه الاستهلاكي واستثماراته للثروة العربية حتى البشرية منها .

(١) لسنا هنا في صدد بحث مشكلة التراث والدين والتاريخ وامكان او تعذر اعتبارها ركائز للمستقبل ولكنها خاطرة عابرة اقتضاها ايضاح الفكرة . ولعلنا نضيف اننا لا نقصد بالحفاظ على التراث: السلفية والرجعية ، ولكن نقصد ما نستطيع تسميته بالتراثية التي يقترب معناها كل الاقتراب عندنا من مفهوم الاصالة والارتكاز العميق في الارض لتمتد الفروع بعيدة في السماء .

الطبيعية وآثارها في الانسان العربي ، عبر الايكولوجيا والجيوبوليتيك، استطعنا ان نقف من العناصر الاساسية الباقية عند اربعة جوانب : ـ

أ ـ طرق الانتاج المادي : كيفية ونوعية العمل الاقتصادي وماذا يحمل من ثقل التاريخ .

ب ـ تكوين نظام السلطة : تاريخية التكوين السياسي القائم ونوع العلاقات بينه وبين الشعب .

ج ـ طبيعة العلاقات الاجتماعية : اسس التكوين الاجتماعي . الجنس والمراة . الولاءات العائلية والعشائرية والطائفية . القيم الخلقية .

د ـ قيم الفكر التراثية (الايديولوجية الفكرية . اللغة والتعبير).

وليست التجزئة التي اصطنعناها في تقسيم هذه الجوانب سوى تكتيك دراسي ، فانها سواء في تطورها التاريخي او فيما انتهت اليه من تكوين الواقع العربي القائم انما تشكل كلا ، تشكل وحدة متكاملة . تتمم المفاهيم الاجتماعية والدينية فيها المفاهيم السياسية وتغطي الافكار والاوهام البؤس الاقتصادي كما يترك الطابع الانتاجي الزراعي والبدوي ميسمه الواضح في الحياة السياسية والاجتماعية على السواء ويبرر او يفسر الوضع الفكري والسلطة وقوى المجتمع ... وايديولوجيات الناس ...

واذا كانت هذه الجوانب تكاد تجمع نواحي الحياة كافة فلان تراث الماضي المتغلغل في الحياة العربية حتى الصميم والمؤثر فيها حتى الصميم يضطرنا لان نلاحق هذا التراث حيث نثقف ، بل ويضطرنا لان نلاحق منه خاصة الجانب السلبي المعوق . على ان المشكلة ها هنا مزدوجة الصعوبة ، وصعوبتها ليست فقط في اختيار الملامح التي نتصور انها هي السبب في التعويق والتخلف ، وقد نتهم في هذا الاختيار بالتعسف او الوهم او الجزئية ولكنها في امر اشد خطرا هو اننا لكي نختار الابعاد التاريخية في التخلف لا بد ان نصطنع مسبقا في الفكر ابعادا مستقبلية محددة للتقدم . في الخلفية الفكرية لا بد ان يكون ثمة مفاهيم قياسية معينة يكون التخلف تخلفا بالقياس اليها بعدا او تقصيرا ، او مغايرة ...

على اننا تفاديا لهذه وتلك سنحاول ان نكون في الجانب الوصفي ، لانه الاقرب الى الموضوعية والى الارض المشتركة ، دون جانب التقييم الذي ينفسح ميدانه لكل الاهواء . وسنحاول ان يكون المعيار في حدود روح العصر ومعطياته وحاجاته لان اساس الازمة كلها انما تكمن في الغربة عن العصر ..

١ ـ طرق الانتاج المادي وجانب التراث فيه :

برغم انوف المصانع التي تتصاعد بدخانها الى السماء في اكثر من موقع في الوطن العربي وبرغم الثروات الضخمة التي تتدفق ومشاريع التخطيط والانماء والخبراء .. فان الطابع الاوضح في المجتمع العربي المعاصر هو طابع الانتاج التقليدي . علاقات الانتاج وطرقه ومفاهيمه لم تتغير الا في القليل القليل عما كانت عليه منذ قرون قد تزيد احيانا على العشرين والثلاثين .

لقد ورثنا في مختلف مناطق الوطن العربي حياة انتاجية تقوم اساسا على الزراعة ، وقد لا يكون في هذا كبير امر لولا ان هذه الانتاجية الزراعية حافظت ايضا على الوسائل والطرق التقليدية. واذا كان الفلاح فيها متوحدا مع الارض في الصلة والعلاقة حتى كانه جزء منها ، فان من الطبيعي عند هذا الفلاح ان لا يكون الانتاج له ولكن للاخر مالك الارض (سواء كان شخصا اقطاعيا اوحكومة مسيطرة) وان تتحكم في كمية الانتاج لا جهود الانسان ولكن القوى الاخرى الغيبية دوما وفي الاسعار لا قيمة الجهد والعمل ولكن القوى غير المنظورة التي لا حول للمرء امامها ولا قوة ، لانها من عالم المتسلطين ..

وقد كانت هذه الحضارة الزراعية خلال القرون السابقة ،مبررة ومقبولة ضمن الاطار التاريخي لها ومنسجمة مع ما تفرزه وما يتصل بها في الوقت نفسه من تنظيم اقتصادي ، اجتماعيوسياسي ايضا ومن علاقات استغلال ولكن معطيات الحضارة الحالية ، مع الانفجارالسكاني العربي ، يجعل هذا الطريق الانتاجي اليوم مسدودا. انه لا يؤدي فقط الى تزايد الفقر والبؤس الشديد والجوع وسوء التغذية ولكن ايضا الى الصاق الطبقات الفلاحية بالتراب وبطبقة السوائم التي تعيش معها . وهذا يعني عبودية وتعطيل ثلثي قوى الانتاجفي الوطن العربي . انسانية الفلاح هذا الركن الاساسيفي الانتاج المادي ، تنتهي امام اشباح الجوع والسيطرة الراكضة وراءه، وامام علاقات الاستغلال الاخطبوطية التي تغل يديه والقدمين .. بلى لقد حاولت قوانين الاصلاح الزراعي والثورات ان تغير من ذلك الوضع الانتاجي التقليدي ولكن سوء التطبيق مع بعض العوامل الاخرى كان يشل مفعولها الثوري ، ان لم يؤد في معظم الاحيان الى تحول الكثير من اراضي الزراعة العربية ، الى ارضموات..

واذا كانت البداوة وما يتصل بها من انتاج رعوي من موروثات الماضي العربي ايضا باعتبارها من لوازم الارض العربية التي تملأ البوادي والصحاري قلبها كله في المشرق الاسيوي واقسامها الجنوبية في افريقيا وباعتبارها تحتجز ١٥ بالمئة تقريبا من الكتلة السكانية العربية وما تزال تحتجزها ، فان المناطق الحضارية من الوطن العربي بحكم جوارها المتصل دوما مع البادية كانت دوما معرضة للاجتياح البدوي لا من الناحية الديمغرافية فحسب ولكن من ناحية القيم ايضا . اخر مد بدوي اصابها انما كان في العهد العثماني خاصة فقد تقلصت الارض الزراعية وسيطر الغزو على اطراف الريف وقامت العصبيات القبلية وتسللت حتى الى المدن ليستمسك بها الناس بدل السلطةالتي كانت غائبة ..

ومما يتصل بالعقلية البدوية امران ما تزال نلمس اثارهما الواضحة في المجتمع العربي :

اولهما : الرغبة عن العمل والاعتماد على موارد اخرى للحياة: فاذا لم يكن غزو حلبنا الابل او انتقلنا الى مرعى اخر اكثر امراعا . ومن الصدف الغريبة ان البترول ظهر في المناطق الصحراوية العربية ، كنوع من المرعى الجديد المجاني دون عمل .. وبدل حليب النوق فنحن نحلب اليوم الارض ..

الثاني : امتهان الحرف والنظرة « الدونية » التي ينظر بها العرب الى الاعمال المهنية ، واذا قال الفرزدق القديم في هجائه المرير لصاحبه جرير :

هو القين وابن القين والقين جده
ولا خير في قين تحدر من قين

فما تزال هذه « الانفة من العمل المهني قائمة في تكويننا النفسي ، التفضيل في العمل ينصب على الوظيفة الرسمية والاعمال ذات السلطة اولا ، فعلى التجارة واعمال الوساطة وفي اسوا الاحوال على العمل الزراعي والتعامل مع الارض ... اما الحرف فكانت خلال القرون الاسلامية عامة متروكة لمن لا سلطان لهم من قوة عسكرية او قوة من مال او فضلة من ارض ..

ولم يستطع العصر الحديث ان يخلص العرب من هذا الموقف « البدوي » البدائي بعد . ونحتاج النفسية العربية الى نوع من اعادة التكوين والتاهيل في هذه الناحية لتخلق نوعا من الانسجام بينها وبين العصر يقبل لا الحرف والمهن ،كعمل نبيل ،ولكن((الصناعة)) والتكنولوجيا كقدر حضاري لا بد منه ..

ولقد كانت للتجارة دوما في العرب سمة النبل بين الاعمال . الموقع الجغرافي العربي هو الذي جعل من التجارة لا العمل العربي المتاح والمربح فقط ولكن العمل الممدوح « المبارك » ايضا . وقد

كان التاجر رمز الحضارة العربية الاسلامية وخاصة في عصورها الذهبية . ولكن التجارة العربية الواسعة التي سمحت بتكدس الثروات والتفوق الحضاري والسياسي العربي انتهت منذ القرن السادس عشر ، مع عصر الاكتشافات الجغرافية . القرون الثلاثة التي تلت ذلك كانت فترة ركود لا في العطاء الحضاري فقط ولكن ايضا في علاقات العرب العالمية . انكمشت صلاتهم مع الدنيا والناس . عزلوا عن العالم كله بعمليتين متقابلتين فقد انغلقوا على العالم ضمن اسوار الامبراطورية العثمانية من جهة كما تضاءلت علاقات العالم الغربي المتقدم ، خاصة ، معهم من جهة اخرى ، الا ما يكون من محاولات الكسب والنهب الحربي او التجاري ،وبينما اصبح الوطن العربي كله قوقعة كبيرة ، انكفأت العملية التجارية الى الداخل وافتقرت بالاستهلاك الداخلي المحدود والجمود العام الاجتماعي والفكري . واذا اعاد العصر الحديث للموقع العربي منذ قرن على الاقل ، شأنه واهميته العالمية فانه لم يعد اليه « التجارة الدولية » . ظل الغرب هو الذي يحتكرها ويستغل المواقع العربية نفسها بالاستعمار والقوة العسكرية والتفوق السياسي والمالي والحضاري . واستمرت بالمقابل تجارة العرب برية داخلية من جهة ومحدودة المردود من جهة اخرى . ولم يستفد العرب من ثورة وسائل الاتصال والنقل الحديثة لانهم في الواقع ، لا يملكونها . كما انهم بابتعادهم عن طبيعة العلاقات التجارية المعقدة في الحضارة الحديثة خسروا الامكان والعلم والقدرة على معاودة السيطرة على هذه التجارة التي غادرتهم . وفي الظروف الحالية على الاقل الى الابد .

وضعف الانتاجية العربية الذي مضى عليه الان اربعة قرون او تزيد ترك بلاد العرب في وضع من الفقر المتجمد ومن اقتصاد الكفاف المتمادي السكوني في الوقت الذي كانت فيه « انتاجية » المناطق المقابلة جغرافيا للعرب على البحر المتوسط ، والتي نسميها « الغرب » ، ترتفع بشكل هائل حتى ظهرت الرأسمالية وما يتصل بها هناك ، وتطور مفهوم حديث للمال وقدراته وطرق استخدامه غريب كل الغربة عن المفهوم التقليدي العربي الموروث ...

لقد اعتبر العرب ـ من خلال مراحل التاريخ ـ وما يزالون يعتبرون المال قيمة ثابتة لا حركية . وذا بعدين فقط سواء في حركته من بيع وشراء او في مادته من نقد وعقار . عشرات الابعاد التي فتحتها له الحضارة الحديثة في الشبكة العالمية المالية المعقدة، ما تزال غريبة على المجتمع العربي الذي يحتقر ـ وربما بسبب فقره نفسه ـ المادة ، وينظر اليها كأمر ثانوي غير رئيسي في دورة الحياة الكبرى . وما يزال يناقش مشكلة « الربا » كقضية حيوية ،ويجد العزاء الجميل عن فاقته في مصير « اولئك » الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم . يوم يحمي عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ..» ولقد يتكشف هذا الموقف السكوني والسلبي من المال حين ننظر الى حيرة العرب اليوم بهذا الدفق الهائل من الارصدة العربية المجمدة الذي هبط عليهم فجاة ، وعلى غير استعداد وانتظار ، فهم لا يدرون ما يفعلون .

وعلى اي حال فان هذه الاوضاع الاقتصادية السكونية في الوطن العربي قد اصيبت بالرغم منها بعدد من الهزات منذ اصطدامها بالاقتصاد الاستعماري الغربي وبنمو الاستهلاكية المحلية وارتفاع مستوى المعيشة ولا سيما في المناطق الاكثر صلة واحتكاكا بالغرب وفي عقد الاتصال معه ..

لم يصب الريف من ذلك الاصطدام الكبير انقلاب يغير مصائره، فيما عدا تحول مصر الى مزارع قطن لمصانع مانشستر في مطالع هذا القرن وتحول كروم الجزائر الى خمور في الاقبية الفرنسية ، فان الريف العربي ظل على ادواته القديمة وعلى وتيرة انتاجه التقليدي وان دخلته الآلة والسدود في بعض المواضع فان انتاجيته العامة ظلت تقصر باطراد عن مدى الحاجة المعيشية للسكان المتزايدين .. ولكن المراكز المدنية هي التي توسعت فيها طبقة البورجوازية الصغيرة ، التوسع الكبير الذي سيطرت معه على الاقتصاد من جهة وعلى الحكم بواسطة الجيوش التي افرزتها من جهة اخرى وعلى ما بين هذين القطبين من ثقافة وايديولوجية .

افرز التطور الاقتصادي والاجتماعي اذن خلال القرن العشرين طبقة وارثة جديدة في الوطن العربي كله الفت ـ الى حد ما ـ وفي بعض المناطق خاصة ، الطبقات (الاقطاعية ـ التجارية ـ العلمية) التقليدية وحلت الى حد كبير محلها في وظائفها نفسها ولكن تحت شعارات جديدة : هي الاقتصاد القومي (الاقليمي) والدولة القومية . ولكن طرق الانتاج لم تتغير كثيرا في سوى التصنيع المحدود وسوى ظهور طبقة عمالية متزايدة السعة ايضا في المدن العربية ، ولم تتركز الفعالية الاقتصادية العربية في هذه البورجوازية الناشئة فقط ولكن الفعالية الثقافية والسياسية ايضا للدرجة التي اضحت معها حاجاتها وامالها هي حاجات وامال المجتمع العربي نفسه ، بعد ان فرضت نفسها كطليعة له ، لا سيما ان القطاع الريفي ما يزال على عطالته السلبية في الشؤون العامة . ولما لم يكن للبورجوازية العربية الناشئة من طموح واضح حتى الان أبعد من الرفي الاقتصادي وذلك تحت تأثير قصورها الفكري وفيضان السلع الاستهلاكية من العالم المتقدم ، وكانت تعيش تناقض الازدواجية الحياتية بين موروثات الماضي الصلبة وطلعات المستقبل غير الواضحة ، وكانت تفتقر حتى الان ايضا الى فلسفة فكرية واضحة تحدد لها الطريق فانها تتخبط وتتخبط معها الوطن العربي ـ في ما يمكن ان نسميه بالمنزلة بين المنزلتين او مرحلة الضياع والحيرة وفي مختلف الوان النشاطات والقطاعات ، فهي في الانتاج بين الطرائق القديمة والمرحلة الرأسمالية ،وفي الفكر بين التراثية السلفية والعصرنة الكاملة ، وفي السياسة بين دولة القرون الماضية والليبرالية والدولة الاشتراكية ، وفي المجتمع بين اقسى التقاليد التي ضاعت مبرراتها القديمة وبين الانفتاح الاجتماعي الحديث الذي لم تتبلور فيه القيم الجديدة .. واخطر شأنها انها استطاعت بعد ان ناضلت اقسام منها للتحرر الوطني ان توجد لنفسها القوة الضاربة ، حين اضحى ضباط الجيوش العربية من ابنائها .. وحين استطاعت ان تحقق سلسلة من الانقلابات العسكرية سيطرت بها ـ دون وضوح كامل في الرؤية المستقبلية او استعداد في الخبرات ، على معظم اجزاء الوطن العربي .. ان التناقضات داخل هذه الطبقة هي التي انعكست قلقا وعدم استقرار في كافة هذه الاجزاء .. كما انعكست استبدادا وخنقا للحريات وحقدا اعمى على كل من يقف في طريقها او يرفع شعار الوعي العقلاني ..

٢ ـ تكون نظام السلطة مع التاريخ

لو شاء باحث ان يلخص في سطرين قصة النظام السياسي الذي ساد البلاد العربية في القرون العشرة الاخيرة (ان لم نشأ ان نذهب الى ما وراءها ثلاثة او اربعة قرون اخرى) لوجد انها ليست اكثر من تحالف مصلحي ثلاثي الاطراف قائم ما بين طبقة عسكرية غريبة دوما ولكن لها الرئاسة وطبقة من الاسر المحلية (الاقطاعية او التجارية) ثم طبقة تعيش على اطراف هاتين الطبقتين من رجال « العلم » الديني ... ثم تاتي الطبقات الشعبية التحتية وتشمل حرفيي المدن وفلاحي القرى . وهي الرعية الطيعة وموضع الاستغلال الدائم والانتاج للاخرين سواء كانت من الاحرار ام من العبيد .

فأما الطبقة العسكرية فانها وان غيرت الاسماء من اتراك اوائل الى بويهيين ثم الى سلاجقة واتابكة وايوبيين ثم الى مماليك ومغول (ايلخانية وجلايرية) وتركمان (قره قونيلو واق قونيلو) وصفويين ثم عثمانيين (1) ، فقد كانت في الغالب من الاتراك كما كانت من المماليك الذي برزوا عن طريق الجيش وهذا ما كان يفرض على المنطقة العربية الشرقية خاصة الحكم العسكري القائم على قوة السلاح . الرئاسة السياسية كانت دوما للقواد في الجيش .وطريق الجند كان اقرب الطرق الى السلطة . السيف والسياسة متلازمان ، فان تحولت الرئاسة الى وراثة اسرية كما في العهد العثماني فان الولايات المختلفةوالاعمال كانت من حولها على الدوام للقادة العسكريين الذين كانوا يحصلون تارة لقب نائب وتارة لقب باشا .. حتى طبقة المماليك وهم متعددو الاجناس ، لم يكن تجمعهم الا عصبية السلاح والاشتراك في استغلال الرعية الكادحة . وكثيرا ما كانوا اشبه بعصابات من اللصوص تشحذ الرعية منهم العطف شحاذة وتستجير احيانا على الطرقات لتخفيف اغارم والضرائب والعدوان على الناس .

اما طبقة الاسر المحليه فانما نسميها كذلك تجوزا لانها خليط متنوع من بقايا الطبقات الوافدة في الغالب : العسكرية والتجارية المتنقلة والموظفين الذين اغتنوا او المتمولين والاشراف .. ومراكز هذه الاسر انما كانت في المدن حيث يقوم مركز الثقل السياسي . وكانت تجد في تحالفها مع الطبقة العسكرية سلاح الحماية لمصالحها في الاقطاع الزراعي والرعوي الواسع او في حماية التجارات والاموال والعقار . وبالرغم من انها كانت احيانا تنكب او تنهبمن قبل الطبقة العسكرية الا انها كانت تجد في الخضوع لها عن رغبة او رهبة سبيل ضمان العيش الغني الهادىء وتجد فيالحصول على « الامن » تعويضا كافيا عن ترك السياسة لاربابها ..

واما طبقة « رجال العلم » الديني فهم مجموعة تمتد منالقضاة والمفتين الى خطباء الجوامع بما في ذلك رجال الطرق الصوفية على اختلافها ، وكانت وظيفتهم افراز القيم والافكار التي تخدر الطبقات المستغلة وتعطي التغطية الكافية للطبقات الحاكمة (بشكليها العسكري والاقطاعي التجاري) . افكار القناعة . والتسليم . والرضى بالمقسوم . واطيعوا .. اولي الامر منكم . « ورفع بعضكم فوق بعض درجات » ، « ونرفع درجات من نشاء » ، « ويرزق من يشاء بغير حساب »، « ويعز من يشاء ويذل من يشاء » هي وحدها دون غيرها القيم والشعارات التي اختيرت من اوامر الدين ونواهيه . ويتبع ذلك تلك الامثال والتعليمات الاجتماعية التي سربت الى الناس :اليد التي لا تقدر عليها قبلها وادع عليها بالكسر ، واي من اخذ امي صار عمي .. نوم الظلام رحمة . يوم الحكومة بسنة وسنتها لا تتدبر. ظلم بالسوية عدل بالرعية .. انها التراث السياسي الذي ما يزال قائما في النفوس وكاساس للعلاقة بين الحاكم العربيو« الرعية ».

وكما كان الحكم وراثيا والتجارة والاقطاع على الوراثة كذلك تحولت في القرون الاخيرة مجموعة رجال العلم الى اسر تتوارث المناصب الدينية في شبه احتكار وتنهب بدورها موارد الاوقاف الكثيرة .

واساليب الحكم انما كانت نتيجة هذا الوضع التسلطي الاستغلالي المنظم فلما كان الهدف الاساسي للحاكم هو البقاء في الحكم اطول مدة يستطيعها فقد كان الاسلوبان الوحيدان المواتيان والمكملان لمثل هذه الاوضاع هما : الاستبداد والسلطة المطلقة من جهةوسياسة القمع بالقوة والقهر من جهة اخرى . الحرية الوحيدة المتاحة هي حرية الحاكم واعوانه في التصرف لا بأموال الناس وبالحقوق والفكر وتفسير الدين فحسب ولكن بالحياة نفسها ايضا . الحكم نفسه كان فرديا ، ولئن كان يحمل الصفة الاسلامية ، الا انه لم يكن يصدر عنمبادىء الاسلام في الشورى والعدل ولكن عن اهواء المتسلطين . والعلاقات في هرم السلطة كانت مع من هم اعلى ، علاقة الرشوة والنفاق والزلفى ومع من هم ادنى علاقة استعباد وابتزاز ، وما هذه بالضبط الا تتمة تلك في علاقات الصعود والنزول .

وربما استطعنا ان نلحق بالطبقات الحاكمة « ذيلا » تابعا لها هو الطبقة البوروقراطية التي كانت اشبه بكاتمة اسرار الحكم ، بيديها الاتصال بالكبراء والحكام وبيديها اسرار ومراسلات الدولة وسجلاتها وجداول الضرائب واحكام القضاة والمفتين . ميزتها التي تكسب بها الخبز والرزق انها تقرأ وجمهرة الناس اميون وانها تشكل طبقة حاكمة وسيطة والناس كل الناس على الرهبة والرجاء من الحكام . « التحصلدار » و « اليازجي » هما مع العسكري نجوم المجتمع الادنى والوجه المباشر لحكامه .

واما الشعب المحكوم فكانت علاقاته مع الطبقات الحاكمة علاقات انفصام وانكماش ذاتي . نوع من القطيعة الكاملة كانت قائمة بين الطرفين فيها الحذر (مقابل النهب) والكره (مقابل الاحتقار)، والتدبر الفردي (مقابل الاهمال) توطدت لدى الطبقات التحتية مع الايام عقد من المشاعر المستقرة اعطتها الظروف وتقلب الحكام وحكم السيف الف مبرر ، منها : الشعور بالعجز والخنوع والهرب من المسؤولية . ورفض التعاون مع الحكومة . وتحليل سرقتها : اموال « الميري حلال » والهرب من دفع الضرائب ، التي كثيرا ما كانت تسمى ، « مظالمات » . حتى المجرمون كان من العيب اخبار الحكومة عنهم وفي بعض البقاع الريفية كان من العيب دفع الضريبة طوعا دون ان يسبقها « فتلة » تبرر الدفع .. « ابن الحكومة » كانت لا تختلف صورته عن اي عدو . الواقف منه تتسم بكافة ردود الفعل التي تبدر تجاه الاعداء . وكان من شأن الظلم المستمر اكثر من الف عام ان ترك في قرارات النفوس نوعا من التناثر . فتت مشاعر الانتماء والترابط القومي والولاء وحولها الى مشاعر انانية انكماشية ذاتية . الانسحاق تحت وطأة الظلم المتمادي حول الشعوب العربية رغم عوامل الاندماج والتقارب فيها الى ذرات من الرمل . واذا كان هذا الحال هو الذي لم يسمح لها ان تكون كتلة من القوةالصخرية المتماسكة فانه هو نفسه الذي سمح للولاءات القبلية والطائفية والمذهبية والمحلية ان تنمو . وسمح للوجاهات الفردية المحدودة ان تبرز . كان كل ذلك شكلا من اشكال الدفاع عن الذات . حتى عصبيات السلاح ما بين انكشارية مثلا وسباهية وخاصكية كانت نامية متحركة وحتى رابطة الحي الواحد كانت قائمة . واما الوجاهات فكانت اشبه بخشبة النجاة .. اي اصطدام من السلطة كانت الوجاهات هي الوسيط لحله لا القانون ولا مبادىء العدل والدين.

واذا نحن اهملنا الضربات الاستعمارية الغربية الاولى للعرب ايام الاسبان والبرتغاليين ومطالع التغلغل الانجليزي والتي لم يكن من شأنها سوى عزل المنطقة العربية عن العالم ، فقد فاجأ الاستعمار الحديث بلاد العرب منذ مطالع القرن التاسع عشر بالهجوم الاحتلالي ثم ابتلعها قطعة قطعة حتى مطالع القرن الحالي فلم يبق خارج سلطته سوى الكتلة الوسطى من الجزيرة العربية .

وكان من نتائج الوجود الاستعماري وعمله فيما يتعلق بالتكوين السياسي العربي امران :

---

(1) لا بد هنا من استثناء منطقة المغرب الاقصى خاصة من هذا التعميم غير انها وان كان لها تطورها الخاص بالنسبة للاسر الحاكمة وخاصة العلوية والاخيرة الا انها تندرج من حيث النتيجة ومن حيث التقاء هذه الاسرة الحاكمة مع الطبقات الاقطاعية والتجارية والعلمية خلال القرون الماضية ، ضمن هذا التحليل نفسه .

الاول : استغلال الاوضاع القائمة لمصلحته وهكذا فانه بعد ان حل محل الطبقة العسكرية الحاكمة واضعا بدلا منها « طاقما » من عسكريته تحالف مع الطبقات المستغلة الاخرى (من اقطاعية وتجارية ودينية) . واذا ولد من هذا التحالف بنتيجة الاحتكاك مع الغرب والاخذ بمبادئه السياسية طبقة بورجوازية في البلاد العربية بدا يظهر وجودها واثرها منذ اواخر القرن الماضي ثم ما لبثت ان حمل قسم منها راية العمل ضد الاستعمار حتى تحقق جلاؤه في الخمسينات والستينات فان هذه الطبقة التي كثيرا ما تحولت (كما في مصر والمغرب) الى طبقة راسمالية لم تولد ولادة مثيلتها الغربية ولكنها كانت الشكل الجديد لتلك الطبقات المستغلة القديمة .صراع التناقضات وحلها في المجتمعات العربية الحديثة انما تم بالتدخل المباشر من القوى الاجنبية الخارجية الاستعمارية وتحت رعايتها مما حفظ لدى الحكام اساليب خنق الحريات والاستبداد والاستغلال القديمة من جهة وحفظ في الوقت نفسه ردود الفعل الانفصامية الرافضة لدى طبقات الشعب من الجهة الاخرى . ومن هنا ذلك الازدواج المتنافر ما بين مبادىء الديمقراطية والحكم البرلماني وبين تطبيقاتها في البلاد العربية ومن هنا ايضا ذلك الفهم الازور لحقوق المواطن دون واجباته ومطالبة الشعب للحكومة بكل شيء دون التعاون معها .

الثاني : ادخال التجزئة الاقليمية والمنطق الاقليمي الى بلاد العرب . الحدود بين اقاليم العرب انما الاستعمار هو الذي وضعها جميعا ، مضيفا بذلك مشكلة جديدة الى التكوين السياسي . ما من حد في بلاد العرب على الاطلاق ، سواء فيما بين بعضها بعضا او فيما بينها وبين البلاد المجاورة وضعه عربي او اشترك فيه عربي (1) . حتى الاستعمار الواحد فرض التجزئة السياسية على الاقاليم التي دخلها فجعلها وحدات شتى (كما جرى في سورية ولبنان والمغرب بالنسبة لفرنسا وفي العراق وفلسطين والاردن ومصر والسودان بالنسبة لانكلترا) . واذا كان السبب المباشر في ذلك مقاومة فكرة الوحدة العربية التي بدات تظهر في بلاد العرب فقد كان من نتائجه المباشرة ايضا ان تحولت هذه الحدود الى مسلمات بديهية لدى الشعوب العربية ، بعد ان مضى عليها حتى الآن ما بين قرن الى خمسين سنة ، وظهرت على اساس ذلك مصالح اقليمية متنافرة ، ومنطلق اقليمي مبرر ، وكيانات اقليمية بقيت بعد ذهاب الاستعمار نفسه قائمة .. ولئن استند بعضها الى الاثريات والتاريخ الاقدم او الى اللغات المحلية المندثرة او حتى اللهجات العامة فان ما ثبت اسسها هو تلك المصالح الاقتصادية الطبقية التي ربطت بها والتي سميت احيانا كثيرة بالاقتصاد الوطني . وقد توطدت هذه الحدود الاستعمارية للدرجة التي وجدنا حروبا (كما بين الجزائر والمغرب) وشكاوي الى مجلس الامن (كما بين مصر والسودان) وتعديات عسكرية (كما بين الاردن وسورية او بين اليمن الشمالي والجنوبي) متبادلة تتم بين البلاد العربية الواحدة . ولا تستنكف الان اية دولة عن الاحتماء وراء المصالح الاقليمية في مباحثاتها مع الدول الشقيقة سواء تعلق الامر بمشروع مياه (كسد الفرات وقصته بين سورية والعراق) او تعلق بتحديد نقاط الحدود (كما بين الكويت والعراق ، او اليمنين) او بتثمير مالي (كما بين السعودية وسورية) او هجرة عمال (كما بين سورية ولبنان او بين مصر وليبيا) .. ان بعض دول العرب (كما في الخليج) مغلقة على ابناء البلاد العربية حتى للزيارة .

فاذا كانت الظاهرات الاساسية في الحكم بالبلاد العربية ، منذ بدء الاستقلالات في ختام الحرب العالمية الثانية الى اليوم هي تناقص قيمة الانسان العربي باستمرار كانسان وانهزام القانون وسيطرة السلاح والعسكريين على السلطة حتى باسم الثورية . وكان الاسلوب السائد في كل مكان هو الاستبداد ودوس الحريات وتوحيد مفهومي السلطة والوطنية بحيث تكون « معارضة السلطة » تعني الخيانة الوطنية ، وكانت الحرية الوحيدة المقولة هي حرية الحاكم في املاء رأيه والخيار الوحيد المتاح هو بين الخنوع او السجن او الرحيل . وكانت ثمة قطيعة شبه كاملة بين فئات الحكام والطبقات المستغلة المتحالفة معها وبين الشعوب التي تتخذ الاكثرية الصامتة فيها الموقف السلبي او تنساق قطاعات منها مع النفاق السياسي في التصفيق لكل حاكم جديد وشتيمة كل حاكم سابق .. اذا كانت الظاهرات الاساسية هي هذه وكانت الاشتراكية التي دخلت على بعض الدول والتي تقوم في الاساس على التخطيط والعلم وحب الانسان والعطاء والعمل المضاعف انما اقيمت عمليا على الارتجال والجهل والحقد والسلب واهمال العمل . وكانت الخطوات نحو الوحدة تتراجع وتنتكس بدلا من ان تنمو وتتوطد وكانت قوى الشعوب العربية بنتيجة ذلك كله تتناقص والثورات فيها تفشل والاستعمار يجد الركائز ، اذا كان كل اولئك فلان ثمة بين عواملها الكثيرة ورغم كونها ظاهرة من ظواهر التخلف في العالم الثالث ، ثمة خلفية تاريخية واسعة من المعطيات الموروثة هي التي تعطي هذه الامور مرتكزاتها والتربة الصالحة لقيامها ... اليست التربة فيما يقول الزراعيون « تقلب » بذور الاشجار المثمرة وتعيدها الى اصلها الردي ... واذا كان نجاح الاستعمار انما يكون اولا بوجود استعداد لدى الشعوب المغلوبة له فان نجاح الديمقراطية والاشتراكية ومبادىء العصر السياسية لا يمكن ان يتم بدون وجود حد ادنى من الاستعداد لها . ان هذا الاستعداد لا يهبط هبة من السماء ولا يأتي بنقل النظريات والشعارات عفوا وتقليدا ولكن تكسبه الشعوب بالنضال الطويل وتدفع غاليا ثمنه في تاريخها نفسه .

ولعلنا مضطرون قبل طي هذه النقطة من البحث ان نشير الى اشكالية سياسية ذات جذور عريقة في التاريخ السياسي العربي هي التصاق الدولة بالدين والدين بالدولة منذ ظهور الدولة الاسلامية الاولى في عهد الرسالة . لا فصل بين الطرفين في المفهوم الاسلامي لان الاسلام دين ودنيا ، واذا كانت الفرق الدينية المتناحرة حول الخلافة وغيرها في التاريخ الاسلامي انما تمثل احزابا سياسية ، وكانت هذه الفرق ـ الاحزاب في بعض الاحيان اساس نشوء عدد من الدول ، كالادريسية والفاطمية والرستمية وامامة عمان وقرمطية البحرين وزيدية اليمن ، فان هذه الظاهرة ما تزال قائمة الى اليوم وقد كان من نتائجها في العصر الحديث مثلا ظهور الدولة السعودية على اساس الحركة الوهابية والمملكة الليبية على اساس الحركة الادريسية وقيام بعض الحركات الاسلامية السياسية في اطار الاهداف ذاتها (كحركة الاخوان المسلمين ، وحزب التحرير الاسلامي .. الخ) .

وبعيدا عن ان يكون الهدف من هذه الملاحظة شجب او تأييد لقاء الدين بالدولة ، فان هذا التراث التاريخي الطويل من اللقاء والتوحد قد ترك امام الدولة العربية الحديثة ثغرة لا بد من ردمها بمحاولات توفيقية قد تنجح او تفشل لا على المستوى التشريعي القانوني فحسب ولكن على مستوى الممارسة السياسية ايضا واقامة الوان من العقبات والازمات في وجه عوامل التحديث السياسي .

٣ ـ تاريخية العلاقات الاجتماعية

ولعل التاريخ لا يكمن ويتجذر في شيء قدر كمونه وتجذره في العلاقات الاجتماعية . المجتمع في العميق العميق من الطوايا هو الذي يحتفظ اكثر من غيره رواسب التاريخ وتاثيراته الباقية وجروحه ..

(1) لا يشذ عن هذا الا الحدود التي وضعت بين السعودية واليمن بعد حرب ١٩٣٤ .

ومن هنا كانت المقاومة الاجتماعية للتغير اشرس المقاومات واقساها واكثرها تعقيدا . ولعلنا في نوع من التبسيط والملمة الملامح، نستطيع ان نرى الابعاد التاريخية في التخلف الاجتماعي العربي، من خلال ثلاث زوايا تكون بدورها وحدة متكاملة :

١ ـ علاقات الاسرة : النظام الابوي ، الجنس والمراة .

٢ ـ التركيب الاجتماعي واطارات الانتماء : العائلة والعشائرية والطائفية .

٣ ـ القيم الاجتماعية : نظام القيم السلبي (الممنوع) .والاسس السكونية (القمع والعجز) مفهوم الشرف الجسدي . عقدة النقص امام الغرب .

١ ـ الاسرة والنظام الابوي والجنس :

اذا كان التكوين البنيوي للمجتمع العربي يقوم كما في الكثير من المجتمعات الأخرى على الاسرة ، الخجيرة الاولى ، فان هذه الاسرة تتعرض اليوم الى ما نستطيع ان نسميه بالانسحاق او التفتت بعد وضع من التكلس دام اكثر من اثني عشر قرنا على الاقل . ان تاريخ الاسرة في المجتمع العربي ، وان كان يرقى الى ما قبل الاسلام بكثير ، فانها انما اخذت ملامحها المحدودة ، منذ العصر العباسي الثاني بعد ان توطدت خليطة المجتمع الاسلامي واستقرت مختلف المفاهيم الطبقية والدينية والاقتصادية والفكرية فيه وبعد ان ثبت نظام القيم ..

ان الالام التي تتسم بها علاقات الجيل الجديد بالجيل السابق اليوم انما تنجم لا عن ذلك التباين في النظرة الى الحياة والوجود والقيم فقط ولكن ايضا عن قسوة القشرة التاريخية التي تقوقعت داخلها تلك العلاقات في القرون السابقة . واذا جاز لنا ان نعطي هذه العلاقات في القديم اسم النظام الابوي فيجب ان نسرع الى القول ان هذا الشكل منها انما هو جزء متمم ومتساوق مع النظام الاجتماعي ـ السياسي العام الذي يقوم بدوره على الاستبداد . ويمثل الاب في البيت صورة مصغرة عن الحاكم السياسي الاستبدادي ويمهد له اذ يخضع الطفل ، في نظام التربية التقليدي الذي ما يزال شائعا حتى في المدن العربية المتطورة لسلسلة من قوى « الاخضاع »المستمرة، ادواتها العقاب الجسدي و« العيب » والاستهزاء من الناحية النفسية والتقليل والتعليم التقليدي من الناحية الفكرية . النموذج الاجتماعي الاعلى الذي ظل مطلوبا ومطبقا عدة قرون هو نموذج الـ Conformist الذي ينشأ لا على صورة ابيه الجسدية فقط ولكن على صورته الفكرية ايضا وعلى وظيفته الاجتماعية الاقتصادية .. المجتمع قرر ان يكرر نفسه لانه اقتنع خلال العصور السابقة الطويلة بانه بعد ان وصل الى معرفة المثل الاعلى للانسان المسلم في عصر الرسول والصحابة ، لم تبق له الا ممارسة ذلك المثل بالتقليد والتكرار .. وقد ربط ذلك بالمفاهيم الدينية وبالجزاء الاخروي زيادة في توطيد التقليد وفي احاطته بالقدسية والتسليم .. فبلاد الاسلام كلها تحولت من بعد جغرافي، في وجدان المسلمين ، الى بعد مقدس . وكل صور الحياة فيها فانما هي بارادة المجتمع نموذج واحد مكرر .. ونتيجة لذلك فقد ثبتت وتوطدت العادات والتقاليد الاجتماعية حتى الاسن والتعفن .. اضحت نوعا من الطبيعة الثانية للناس . وصار من الصعب التخلي بسهولة عنها او المساس بها واضحت جريرة التخلي عن بعضها اشبه في العرف العام بالخرق لامر ديني .

ولازم هذا النوع من التربية التقليدية القاء حجاب كثيف على الحياة الجنسية ردها الى خلفيات الشعور والى دنيا المحرمات. اخضعها بدورها للقهر والقمع حتى اضحت نوعا من الاسرار وعوامل الخجل . الكبت الجنسي حالة شائعة لها الف صورة والف جريمة والف عقدة وعقدة في المجتمعات التي نعيش . ولما كان الجنس مرتبطا بالمراة فقد دفعت هذه بدورها الى المرتبة الانسانية الثانية وقرونا طويلة . ولئن فرض عليها الحجاب فقد كان الحجاب اخف اثقالها في الواقع لان نوع العلاقة الذي كان يربط البنت بابيها او باخيها او بزوجها او بابنها كانت دوما تقوم على اساس التبعية المطلقة ان لم نقل العبودية . والمجتمع العربي رغم ما اضابه من عوامل التغير ، في العلاقة مع المراة بالذات ، وفي مفهوم الجنس ما يزال، تحت وطاة هذا التاريخ الطويل، يضع نصفه المؤنث خارج نطاق المجتمع والحياة والانتاج باستثناء بعض المدن ... تخلف المراة العربية لم ياتها من عقمها الاقتصادي خلال التاريخ فلقد كان اقتصاد البيت والعمل في الحقل دوما من اعمالها بل لعلها ـ لولا الغزو ـ هي المنتج الاقتصادي الوحيد في الحياة البدوية ولكن انما جاء تخلفها من ضعفها الجسدي امام القوة . ومن ارتباطها بالجنس . حولها الضعف الى خادم وحولها الجنس الى اداة متعة ، نموذج « الجارية » بمعنى الخدمة والمتعة كان النموذج الذي يصور المراة العربية عبر القرون الاخيرة ، السنا نرى الى هذا النموذج الموروث من التاريخ الوسيط ما يزال يسعى بيننا في منازلنا العربية ؟... وان شئت ان تراه اوضح ما تراه فانظر المراة في الريف وانظر الى وظيفتها في بعض البقاع العربية البادئة في التطور ...

٢) التركيب الاجتماعي واطارات الانتماء التقليديه :

غياب السلطة السياسية كنظام امن وقانون وخدمة ، وتسلط القوة العسكرية الغريبة على الناس واستمرار الاستبداد والظلم والبؤس الاجتماعي قرونا بعد قرون بحيث اصبح المثل الاعلى للحاكم هو الحاكم العادل ، كل اولئك اسهم في انكماش الفرد العربي ضمن قوقعته الذاتية . اشعره بعزلته امام مصيره وبانه اعزل امام القهر الحياتي الذي يكاد ـ لاندماجه مع مفهوم القدر الديني ـ يصبح بديهية مقبولة وقدرا مقدورا لا مفر منه وهذا ما اوجد فيه نزعتين متناقضتين ولكنهما رغم التناقض الظاهري فيهما متساوقتان لانهما تنبعان من منبع واحد هو غريزة الدفاع عن النفس . وقد جعلهما الاستمرار التاريخي نوعا من الطبائع الاجتماعية المستقرة :

ـ فردية عمياء هدفها توكيد الذات لعدم الثقة بها وقد تصل الانانية فيها درجة الاهمال الكامل لمصلحة الاخرين وللمصلحة العامة كما تصل درجة النفاق والرياء المخزي امام القوى المسيطرة والانحناء للعواصف التماسا للخلاص ..

ـ نزعة جماعة دفاعية بدورها اوجدت ووطدت ضمن المجتمع العربي التقليدي خلال القرون السابقة تجمعات يهرب اليها الفرد العربي لاجئا في الازمات ، ومراكز قوة يستند اليها في الدفاع عن ذاته وفي الانتصار على مصيره الاعزل . وطبيعي ان تكون الاسرة ، وهي الحجرة ـ الركيزة في المجتمع ، هي الملجأ الاول لا سيما حين تكبر لتصبح عشيرة واسعة . ولم تكن الاسرة في بعض الاحيان بالكافية في الدفاع، فكان الفرد يضيف اليها الالتفات حول المذهب الديني او الانتماء وراء اسوار الطائفة المذهبية ، او حتى الجماعة الحرفية او القرية او الحي في المدينة ...

وهكذا بينما كانت النزعة الفردية تفتت المجتمع العربي ، وتحوله الى اكوام من الرمل البشري المبعثر كانت الحاجة الملحة الى الامن والاطمئنان تعود فتجمعه على الوان من التجمع المحلي والاناني . وكما ظهر النظام الاقطاعي الاوروبي منذ القرنين التاسع والعاشر كنوع من الدفاع السياسي والاجتماعي امام هجمات الفايكنغ الشماليين ، كذلك فان رد الفعل في المجتمع العربي الاسلامي تجاه الضعف السياسي والتمزق المتمادي انما كان (بسبب ظروفه الدينية والجغرافية وحضارته المادية والفكرية وتكوينه التاريخي) بظهور وابراز خشبتي نجاة يلجا اليهما الفرد هما : العشائرية والطائفية . واذا كان المد البدوي الذي عاود السيطرة على المناطق الزراعية في بلاد العرب ايام العثمانيين هو

الذي اعاد العشائرية كنظام اجتماعي وعقلية سياسية الى النمو والسيطرة في الريف فان الطائفية بدورها والعائلية الواسعة (الشبيهة بالعشائرية وان كانت نواتها وكانت اضيق منها) هما اللتان سيطرتا بالمقابل في المراكز المدنية . ومقابل (اخوة السلاح ـ الخشداشية) عند الطبقة الحاكمة العسكرية نمت العائلية الواسعة لدى الطبقات المستغلة (الاقطاعية والتجارية والعلمية) ونمت الرابطة المذهبية ايضا (في اطار المذاهب الاسلامية او فرق التصوف كالمولوية والبكتاشية والسنوسية) ... اما لدى الفرق الاسلامية او الفرق من الديانات الاخرى (المسيحية واليهودية) فقد اضحت رابطة الطائفة الدينية مؤسسة جماعية كبرى واساسية بجانب كونها علاقة دينية ، وهذه الطائفة التي كانت تسمح خاصة للطبقات الشعبية المسحوقة ان ترتبط بمراكز القوة والحماية ، كانت في الوقت نفسه تضع هذه الطبقات تحت تصرف وقيد استغلال الرؤساء الدينيين على اختلافهم ، في نوع مما نستطيع ان نسميه تبادل المصالح والتساند في الدفاع . وقد لعبت التدخلات الاوروبية خاصة دورها الكبير خلال الحكم العثماني في دعم ما يسمى بروح الجماعة Esprit de corps ضمن الطوائف الدينية المسيحية خاصة ولدى بعض الطوائف المسلمة ايضا ...

وقد كانت ثمة تجمعات دفاعية اخرى محدودة السعة من حرفية تربط بين ابناء الحرفة الواحدة ، او عصبية بين ابناء الحي الواحد في المدن او ابناء القرية ضد القرى الاخرى لكنها كانت تجمعات اقل فاعلية واثرا في العملية الاجتماعية الدفاعية لان من السهل زوالها بتغيير الحرفة او تغيير مكان السكن وكثيرا ما كانت تعود فتنطبق على القطبين الاولين : العشائري والطائفي مما نستطيع معه القول بصورة عامة ان الانتماء الاجتماعي وان الولاء انما اخذا ضمن الجماعة العربية، خلال عدة قرون ، وحتى مطالع القرن الحالي شكلين محورين لا علاقة لهما لا بالارض ولا بالجماعة الواسعة : ولكنهما تساوقا في الوجود التاريخي ووجدا في وقت معا :

ـ عصبية القربى والنسب والرابطة الدموية المتمثلة في القبائل والعشائر (الحمولات) في البادية والريف والعائلة الكبيرة في المدن.

ـ عصبية الدين والطائفية المتمثلة في المذهب الديني الضيق بالنسبة للاقليات الدينية خاصة سواء كانت مسلمة او غير مسلمة .

اما الرابطة التي تربط هذه المجموعات بعضها مع بعض ضمن الاطار الاوسع وتجعل منها المجتمع العربي الاسلامي (المملوكي او العثماني) فلم تكن اكثر من رابطة المساكنة او الاشتراك في سكنى منطقة او مدينة واحدة وكانت رابطة سكونية لا تسمح باي تفاعل لا مع الارض ولا مع البشر الذين عليها . المجتمع نفسه بسبب من انغلاقه السياسي والاقتصادي كان قد تحول في علاقاته الى الهمود والركود فلم يسمح بقيام علاقة بين المجتمع ككل وبين الارض (وطنية) من جهة ، ولا بين المجموعات البشرية فيه بعضها مع بعض (قومية) لتندمج في كتلة اجتماعية ايجابية من جهة اخرى .

وحين هبت رياح القومية من اوروبا اواخر القرن الماضي على بلاد العرب حاول رجال النهضة العربية القفز من العشائرية والقبلية او التوسع بهما واغراقهما في القومية الواسعة وظهر مفهوم الامة العربية والعروبة . وبالرغم من ان هذا المفهوم قد حاول في المشرق العربي ان ينفصل عن مفهوم الاسلام بسبب من توافقه في الظهور مع القومية الطورانية التركية المسلمة وقيام العداء بين القوميتين ، الا انه لم يجد مثل هذا التحدي في المغرب العربي ، لان المستعمر كان مسيحيا فلم ينفصل المفهومان هناك احدهما عن الاخر فالعروبة هناك هي الوجه الاخر الحديث للاسلام . هما وجهان لعملة واحدة .

اما مصر بين الطرفين فقد كانت بسبب عراقة تاريخها الخاص وتفردها بالسبق في النهضة تدفع الولاء الاجتماعي فيها في اطار تطورها الذاتي فهو مصري اقليمي فان توسع شمل وادي النيل ...

وعلى اي حال فان هذه المفاهيم ذات الطابع السياسي لم تستطع ان تاخذ ابعادها الديناميكية في اليقظة القومية لانها لم تجد في الخلفية السيكو ـ اجتماعية للشعوب العربية قاعدة اجتماعية موحدة صلبة تستند اليها . تنزلت في المشرق العربي فوق قاعدة مقسمة الولاء بين العشائرية والطائفية واصطبغت احيانا كثيرة بصبغتها وقاست من عقابيلها بينما تنزلت في المغرب العربي فوق قاعدة اسلامية تقليدية فحملت بصورة آلية كل ارث الماضي ورواسبه الميتة ، وظلت في مصر بين هذا وذاك فلا هي هضمت القومية العربية كمنطق ديناميكي (اجتماعي سياسي) للنهضة ولا اعطت الاسلام منطلقا جديدا ولا تجاوزت الاقليمية الى افق اوسع ، وبالمقابل فان الافكار الحديثة في الديمقراطية والتحرر والمساواة وحقوق الانسان لم تستطع ان تستقر وتتوطد وتعطي ثمارها في اعادة التكوين الاجتماعي لان مفهوم القانون نفسه ظل قلقا يصطدم بالولاءات الاجتماعية الموروثة ويصطرع معها وقد يتراجع امام الانتماءات العشائرية والطائفية ...

ثم ان علاقتنا بالغرب صاحب هذه الافكار كانت على الدوام علاقة مأسوية . واذا كان هدفه على الدوام قهرنا فقد اورثنا هذا القهر الكثير من العقد السيكو ـ اجتماعية : كالتقزم امام قوته ومركبات النقص والهرب للماضي والتمسك الاعمى بالتراث او بالعكس او التقليد الاعمى للغرب في الوقت الذي كان فيه هذا الغرب الاستعماري يستغل باستمرار الانقسامات الطائفية ويغذي الولاءات العشائرية ويقيم على هذه .وتلك استراتيجيته في البقاء ويتعمد بشكل مواز للتقسيم السياسي ايجاد نزعات اقليمية محلية (فينيقية فرعونية قومية سورية ـ بربرية ...) يصرف الى مسارباها الضيقة ذلك الولاء القومي العربي الاوسع الذي اخذ ينمو باطراد . كما يغذي ويوقد الصراع بين مفهومي العروبة والاسلام ... وهكذا بينما كانت الخلفيات الاجتماعية التاريخية تلعب دورها السلبي باستمرار في عرقلة قيام تكوين اجتماعي عربي معاصر واضح الولاء والانتماء الى الارض (الوطنية) او الى الجماعة (القومية) واضح العلاقة والصلة الوطنية بين العروبة والاسلام كانت العملية الاستعمارية بالمقابل تسعى للحفاظ على الواقع الاجتماعي القديم وعلى انتماءاته التقليدية لاستغلالها الكامل ... وليس من الاسرار ان المجتمع العربي اليوم يعاني في العديد من بقاعه كلبنان مثلا وسورية ومصر من المشكلة الطائفية كما يعاني في العراق مثلا والجزيرة العربية والمغرب العربي من المشكلة القبلية ـ العشائرية ، ويعاني هنا وهناك على السواء من مشكلة مصطنعة هي الانتماء الديني (للاسلام) او القومي (للعروبة) او من مشكلة التخلص والتجاوز لما لحق الاسلام من رواسب اجتماعية جمدت على جباه اصحابه كل قدرة خلاقة .

(٣) القيم الاجتماعية :

اذا انتهى المجتمع العربي الاسلامي خلال عدة قرون الى ان يتحول الى مجتمع راكد ، المحافظة هي همه الاول ، فمن سمات المجتمعات المحافظة ان نظام القيم فيها انما يقوم على اساسين :

الاول : انه نظام خارجي ، او قبلي لا تنبع القيم فيه من الذات الداخلية ، من حاجتها وقناعاتها وآلامها ولكن تتحدر من عل ، وقد تتصل بأوامر الدين ونواهيه . انها اذن ليست ارضية ـ وان كان اهل الارض هم الذين صاغوا معظم قوالبها وحدودها ـ ولكنها علوية غيبية الحكمة ، وليست ذاتية المنطلق ولكنها خارجية مفروضة من عالم الغيب على عالم الشهادة .

الثاني : ان المنطلق الرئيسي فيها هو « الممنوع » لا المسموح . تقوم على اساس قاعدة السلب لا الايجاب . الـ « لا » هي المنطلق فيها وقد تتقدس الـ « لا » وتكبر لتدخل منطقة الدين و « الحرام » فهي عند ذلك امر مقدس ، تكرسه الجماعة جزءا من متممات الدين ، وان تكن اسسه في بعض الاحيان اجتماعية بحتة . انهم لا يعدمون الوسيلة

لربطه بالنظام الديني حفاظا على سكونية المجتمع ... ان جذور هذه الـ ((لا)) انما نبعت من جدلية الصراع الطويل الذي قام بين الفرد العربي والمجتمع فاذا كان طول عهود الضغط والظلم السياسي والقهر الاجتماعي والكبت الجنسي والقيود والروابط خلال القرون المتتالية قد جعلت الفرد العربي ذا طبيعة كلبية ابيقورية ومكيافيلية في وقت معاً . تضخمت الانا فيه حتى ملأت كل الاطار امام عينيه فهو لا يرى غير ذاته ومصلحته الضيقة وربيبته الحذرة فان الجماعة بالمقابل عرفت كيف تضغط هذه ((الانا)) المتورمة ، المتضخمة التضخم المرضي . وتعيدها الى قمقم العجز والصغار عن طريق نظام القيم القمعي الحرماني ، وجدلية الصراع بين الطرفين هي نفسها التي شكلت بعد هذا أسس القيم الاجتماعية العربية عبر السنين وهي أسس سكونية كلها اخذت شكل الامثال والحكم الدارجة وقد تستعين بآي القرآن ، ويمكن ان نرى ملامحها في عدة وجوه ...

ـ القناعة المادية والرضى ، فالقناعة كنز لا يفنى والرزق مقسوم ولا تتطلع لاعلى منك تتعب ؛

ـ التسليم بالواقع : ويدخلون ها هنا ارادة الله ليعطوا التسليم شكل الايمان الديني . وهكذا يصبح الفقر من امر الله والظلم في الأرض عقوبة الهية على الفساد والتقليد الاجتماعي قمة الكمال واقصى التطلع الديني ؛

ـ الشعور بالعجز فالعين لا تقاوم المخرز . وصغر الانسان أمام الله يسحبونه على الصغر امام الحاكم ...

ـ الهرب من المسؤولية على طريقة لا تنم بين القبور ولا ترى المنامات الوحشة . السنا نلقي بكل اوزارنا الخلفية على الشيطان وبكل اسباب تخلفنا وهزائمنا على الاستعمار ؟

ـ الاتكالية : فرزقكم يأتيكم وما توعدون . ولا تفكر فالله يدبر . والناس ليس بيدها شيء ... ويستنتجون من ذلك ان لا ضرورة للعمل ...

ـ والنفاق الاجتماعي ، فمن يأكل من خبز السلطان يضرب بسيفه .

ـ الشرف الجسدي وقد تحول مفهوم الشرف من القيم المعنوية الى الاطار الجسدي . ليكون حارسا للكبت الجنسي ... وبالاضافة الى الوازع الديني ، فقد ربط الشرف ، وهو القيمة الاجتماعية الكبرى بادنى ما في الجسد ليكون احد عوامل القمع الاجتماعي من جهة وليكون في الوقت نفسه عاملا من عوامل الحفاظ على الانقسام الاجتماعي الدموي القبلي ...

وبالرغم من ان هذه القيم المختلفة كانت في الاصل حاجة حياتية لاقامة التوازن في الحياة العربية الناشطة المتفجرة ، كانت نوعا من الصبر على الشدائد ومن الترضية الايمانية ومن المعونة الخلقية السامية ومن الحفاظ على النبل يوم كانت قيم العمل والفكر والابداع فاعلة ، ديناميكية ، حية . الا انها انحطت مع فقد هذه القيم وغيابها عن الحياة العربية في عصور الركود ، فبقيت اشبه بالقوالب الفارغة وصار الصبر استسلاما والرضى الايماني جبرية خانعة والاستعانة بقوى الروح اتكالية وقصورا ذاتيا والنقاء الدموي عشائرية عمياء وقيما حيوانية ...

ولقد نستطيع ان نضيف الى هذه القيم المتدهورة قيما اخرى من مثلها ولكنها على اي حال لم تكن جميعا لتقوم بذاتها وتستمر في البقاء لولا الركود الحياتي المكرور ولولا ان نصب بجانبها سلم من العقوبات الاجتماعية القمعية يبدأ من الاستهزاء والتخجيل وقد ينتهي بالموت (كما في حالات خرق القيم الجنسية خاصة) . نظام كامل من الارهاب الاجتماعي يسهر عليها وكل فرد فيه خفير ، وكل عين رقيب هذا بجانب العصا الدينية الغليظة المرفوعة بالثواب والعقاب الدنيويين والاخرويين من وراء كل ذلك ... ان عصورا كاملة ، منذ العهود التركية الاولى الى المماليكية ثم الى العثمانية كلها اسهمت في توطيد هذه المسلمات الاجتماعية عصرا بعد عصر نتيجة القناعة العامة بأن المجتمع العربي الاسلامي قد عرف ذات مرة في صدر الاسلام قمة الكمال فليس له اذن الا ان يكررها ، وليس له الا ان يضع لها التفاصيل ويحيطها بالسياج المتين ...

وحين اصطدمت هذه القيم بالحضارة الغربية العدوانية كانت المفارقة من العنف بحيث اوجدت نوعا من الانفصام في الفرد العربي . القيم التي كانت منسجمة مع معطيات عصورها اضحت متناقضة مع حاجات العصر وحفرت في الذات العربية نوعا من ((المأساة)) قوامها التمزق بين كل ذلك التراث الاجتماعي المتكامل وبين ضرورات التفتح والتمرد الحديث ... على الافاق الجديدة .

واذا كان الاستعمار الغربي قد استغل هذه القيم التقليدية جميعا في مكيافيليته الاستثمارية . استغل حتى معطيات الدين فان اهم ما أضافه اليها هو عقد النقص ومشاعر الفخر امام تحديه الحضاري واذا اختفت حدة هذه العقد والمشاعر بنجاح ثورة الجزائر فقد عادت وانكشفت جميعا اثر هزيمة العرب امام اسرائيل ١٩٦٧ حتى استردوا الثقة بانفسهم مرة اخرى اثر حرب تشرين ١٩٧٣ .

(٤) المعطيات التراثية في الفكر العربي

(الايديولوجية الفكرية ـ التعليم والتعبير اللغوي)

التساؤل الاخير هو عما في الميدان الثقافي العربي من بضاعة تأريخية سواء في الاسس او في ادوات الفكر ...

اولا : فاما في الاسس فان منظومة الافكار التي يدور الفكر العربي المعاصر في فلكها وتشكل اسسه ومنطلقاته ليست بنت هذا العصر بالطبع ، رغم ما فيها منه وما تحمل من طابعه . الامم لا تغير افكارها بالسرعة التي يغير بها المرء ملابسه . انها تراث من ((العادات)) الفكرية والطرائق تعشش فيها وتكون مع القيم الاجتماعية وطرق الانتاج ومبادىء السياسة وحدة متكاملة .

ولعلنا نستطيع دون كبير ابتعاد عن الواقع ان نرد النسيج الاولي لمعطياتنا الفكرية التراثية الى ما بين اواخر العصر الاموي ومطالع العصر العباسي الثاني . تلك الفترة الممتدة ما بين مطالع القرن الثاني الهجري واواخر القرن الثالث هي فترة الربيع في العطاء الفكري ـ الاسلامي . فترة التفتح الآخذ المعطي . ما كان بعدها فانما كان بيادر الصيف ومواسم الثمر الناجح لقرن او قرنين ثم كان الذبول البطيء المتمادي عدة قرون . العلم الاسلامي بمختلف أسسه وطرائقه وفروعه انما وضع في تلك الفترة الخصبة فنحن عيال عليه الى اليوم . وعلوم الاوائل انما تعربت ، واصبحت قطعة من الثقافة العربية الاسلامية واخذت اقصى ابعادها في الفلسفة والطب والفلك والكيمياء في تلك الفترة ايضا فلم تضف اليها القرون التالية بعد النضج من جديد ...

كل ذلك التفتح الابداعي الاول ذبل بعد ذلك . لم تنقطع الحضارة ولكن ضمر الجانب الابداعي الخلاق في الفكر . تحول الزهر ثمرا ولكن المواسم لم تأت بزهر جديد . معاناة القرآن اقتصرت على القراءات والتفسير . الحديث اقتصر على التلقين والتردد الحرفي . حتى الفقه اغلق باب الاجتهاد فيه . والفرق الدينية التي ابقت على الاجتهاد مفتوح الابواب لم تستطع ان تبدع فيه الجديد بعد ان قيدت نفسها بدورها بالقمم الاولى . النحو جمد عند مدرستي البصرة والكوفة . اللغة ، ظل علماؤها على ما روى الاصمعي وابو عبيدة . الطبري ظل ابا التواريخ ، فالياقون ذيول له واتباع . الجغرافيون كرروا ما قاله السابقون حرفا بحرف . دنيا الفلسفة وهي دنيا الفكر الحر بعد ان حاولت النفوذ من باب علم الكلام والاعتزال الى الباب الفكري الارحب وقعت اسيرة منطق ارسطو وحوارية سقراط، ثم سحقتها محاولة

التوفيق بين العقل والدين ، بين المعقول والمنقول . الكيمياء دارت حول حجر الفلاسفة تفتش عبثا عنه . ورثت المشكلة عن الاغريق فلم تتنازل عنها . بطليموس كان الامام وصاحب القول الفصل في الفلك وان كان كثيرا ما يكذب او ينقض . حتى الانجازات الرائعة التي قدمها العرب في علوم الفيزياء والرياضيات والفلك والنبات والطب ظلت في حدود الحاجات العملية اول الامر ثم ما لبثت ان طمست بالاهمال والتقليد التلقيني (١) وحتى تلك العقول التي اتخذت منطلقات فكرية مباينة للاعتقاد العام كاخوان الصفا ومفكري المذاهب الباطنية اغرقوا انفسهم وجهودهم في التصورات اللاهوتية التي حولتهم الى فرق تعليمية تصب الفكر في القوالب والاطر الصورية والتأملية . وفكر « الجماعة » وفكر الشيعة كلاهما دخلا اطارات التلقين والاشكال المحدودة ... وبهذا الشكل جاءت العصور البويهية ثم السلجوقية ثم المملوكية ـ المغولية ثم العثمانية على ايقاع ثقافي واحد لا يتغير . كان العقل خلالها اداة ترداد لا اداة تحليل ونقد خلق .. ووسيلة من وسائل توطيد الواقع الفكري و « تجذيره » لا نقده ولا تجاوزه الى ما وراءه . الحفاظ الفقهاء . اللغويون . الشعراء . النحويون . الكيمائيون . علماء الفلك والرياضة . اصحاب الفلسفة ، كلهم كانوا يعيشون على التراث السابق ويرددونه ويكررون . جعلوا همهم في حفظ وتسجيل « سير رجال » العلم ، لا في تطوير العلم نفسه . عبثا تفتش بعد القرن الخامس عن انتاج « ابداعي » جديد ، عن خلق علمي . قصارى الجهود الفكرية انما كانت في الجمع والتلخيص والشرح والتذييل . والاضافة ونظم المنثور . في اعمال الاجترار . وحين جاء العصر الحديث كان صقيع العقم قد اصاب كل البراعم ...

ولسنا في صدد تدبيج هجاء لتلك العصور ولكنا فقط في الوصف الموضوعي لمساراتها الفكرية التي كانت تشكل منظومة من الاسس او ايديولوجية فكرية هي في الوقت نفسه السبب والنتيجة معا في التخلف الحضاري العربي وملامح هذه الايديولوجية ما تزال حية تسعى بين ظهرانينا الى اليوم ، وقد كانت تشكل من قبل وحدة متكاملة متساندة بعضها مع بعض من جهة ومع المواضعات الحياتية الاخرى السائدة من جهة ثانية ، ولقد نستطيع بيان تلك الملامح في النقاط التالية :

(١) الغيبية : ان غلبة التقى على الفكر وغلبة قيم التسليم على القيم الدينية الاخرى نقلت الفكر السببي التعليلي من الارض الى السماء . ابرزت جانب الله في الفعاليات الحياتية على حساب الانسان. وبهذا الشكل اعطت الفكر العربي ، خلال التاريخ ، فرصة واسعة للكسل والعطالة ما دام بالامكان تعليل كل شيء « بعلة العلل » ، القادر على كل شيء وبدلا من التفكير في الشيء صار يكفي التفكير الاقرب والاسهل في ما وراء الشيء . وقد انحط هذا التفكير الماورائي بالتدريج حتى اضحى باسم التقى وعمق الايمان يقبل امورا شتى منها :

ـ ان تعطل قوانين الطبيعة بالكرامات وان يستطيع نفر من ذوي القربى الى الله ان يلعبوا بها كما يشاؤون . صارت المعجزة والخوارق مما تقبله العقلية العلمية وتسلم به .

ـ ان تتدخل في قوانين الطبيعة قوى غير منظورة فتحرفها او تخرقها وان يكون بالامكان عن طريق « كلمة » سحرية تسخير هذه القوى في ذلك . السحر والاحجبة والتمائم والتعاويذ اخذت مكانها من مسلمات الناس الفكرية فلا العقل يرفضها ولا المنطق يقف لها او يدينها .

ـ ان تقبل الاسطورة فيكون لمكان معين أو يوم محدد أو شجرة أو حيوان او انسان قدسيات خاصة أو قدرات غير محدودة . وقد خلق هذا نوعا من الذهنية الاستلابية اشتركت في تكريس الاوضاع الاستغلالية والسياسية التي سادت تلك العصور . وما اكثر ما انسحب التابو الاسطوري على المواقف السياسية والاجتماعية وعلى الوان الظلم فحذرها او علقها بمنقذ منتظر او قدرة منتقمة فوقية ... حتى اذا انهار الظالم لسبب أو لاخر او قتل المجرم كان ذلك جزاء وفاقا .

ونسرع هنا الى تسجيل ملاحظة احتياطية هامة هي ان الفكر العربي التراثي لم يكن غيبيا كله . كان جانب العقل والفكر العلمي في العصور الاولى ناميا وقويا ومنتجا بدوره ، ولكن الجانب الغيبي هو بقي وسيطر منذ القرن الخامس خاصة . وظهر في الجماعة الاسلامية من الصوفيين والمدنيين الغيبيين اضعاف اضعاف ما ظهر فيها من رجال العقل والبحث العلمي الذين اندثر خبرهم بالتدريج منذ العصر السلجوقي .

(٢) التلقينية : ونقصد بها اقتصار العقل على التلقين والترديد ، ان اساس هذه الخاصة انما يكمن في التسليم للسابقين بالافضلية المطلقة وفي سيطرة الموتى على الاحياء . ان توقف الاجتهاد الفقهي مثلا لم يكن سببا في جمود الفكر العربي الاسلامي ولكن كان نتيجة الاوضاع الفكرية العامة التي آمنت بدونية الاحياء وتفوق السلف التفوق النهائي . اعتبار عصر مضى احسن عصر . واخلاقية سابقة اسمى اخلاق وفكر مضى اروع فكر ... هذه العقلية السلفية من بديهياتها رفض التجاوز والاقتصار على التكرار والترديد والتقزم الفكري المتمادي ...

واذا عدنا الى التاريخ وجدنا ان المعارضة السياسية الدينية هي التي بدأت رحلة التلقين والتعلم . عصمة الامام ، وعلمه بالعلم كله وضرورة اخذ هذا العلم عنه اوجدت خطا فكريا « تعليميا » بلغ اوجه يوم انشأ الفاطميون الازهر ونظموا جهازهم الدعائي الفاطمي ادق التنظيم وسلحوه ، عبر الكتب والدرجات والدعاة ، بأكمل الاسلحة . وقد تنبه السلاجقة الى فاعلية هذا الجهاز الحركي والى خطره السياسي على سلطانهم السني فقابلوه بجهاز مماثل ... وهكذا ظهرت سلسلة المدارس التي عرفت بالنظامية والتي ما لبثت ان عمت العالم الاسلامي السني في كل مكان ورصدت لها الاساتذة والاوقاف لتخرج اجيالا بعد اجيال من العلماء الرسميين الذين سرعان ما تسلموا الوظائف الدينية والمدنية ايضا في الدول الاسلامية المتتالية . ولكنهم جميعا انما كانوا يصاغون ضمن قالب معين وتدريس مكرور محدد !! واذا تراجع التنظيم الدعائي الفاطمي بعد انهيار الفاطميين او انعزل الى بعض الانحاء البعيدة بينما سيطر خريجو المدارس السنية عبر العصور ، فقد انتهى هؤلاء واولئك معا الى مواقع فكرية واحدة هي مواقع المحافظة والتلقين والوقوف عند النص المسطور وما رواه الشيخ السابق لتلميذه اللاحق ...

(٣) السكونية : وقد نستطيع ان نسميها اللاتاريخية ايضا ، ذلك ان الفكر العربي الاسلامي بعد مرور العصور الاولى اعتبر وظل يعتبر ان مرور التاريخ والزمن ليس بذي قيمة وان بالامكان اعادة الحياة الى عصر سابق في جيل لاحق ... مقولة الصلاح لكل زمان ومكان استقرت كمقولة اساسية من مقولات الفكر والحياة . القيم التراثية الاولى اخذت دوما صفة القيم المطلقة والماضي اضحى دائم الحضور والضغط على الحاضر وبرغم معطيات التغير الملموسة ومن معايشة العلماء لها وتطويرهم حتى اللباس والقيم الاجتماعية والسياسية معها فانهم ظلوا يعتبرون تغيرهم ابتعادا نحو الاسوا عن العصر المثالي الذي يجب ان يعاش : عصر الرسالة والصحابة . تقديس ذلك العصر سطح النظرة الفكرية والغى عامل الزمن ... جعله حيا اكثر من الواقع الحي وان كان هذا الواقع

---

(١) ليس المراد من هذه الكلمات على الاطلاق انكار المساهمة الهامة التي اضافها العرب الى تراث الانسانية الفكري خلال الحضارة العربية الاسلامية ولكن الاشارة فقط الى ان هذه المساهمة لم تستمر وتتطور الى مجالات علمية وفكرية اوسع واعمق وان غلبة الفكر التلقيني خنقتها وقتلت الامكان الذي كانت تعد به .

بعيدا كل البعد عنه ... صار نوعا من القالب الاسمي تجهد العصور التالية للدخول في اطاراته لا عن طريق المعاناة من جديد ولكن عن طريق التقليد البحت والببغائي ايضا وعن طريق الموقف السكوني ...

ما من شك في ان فهم التقي والايمان على النحو التسليمي هو الذي لعب الدور الاول في هذا المجال ولكن العصور التي يسمونها بعصور الانحطاط منذ السلجوقي حتى المملوكي والعثماني ، كانت تجد في التعلق بذلك العصر المثالي وفي تقديسه نوعا من التعويض والتغطية على مفاسدها وانحطاطها وعقمها الفكري والحضاري . ومن امثلة ذلك انه حكم على عمر بن عبد العزيز من خلال شبهه بعدل عمر بن الخطاب ، وارتفعت قيمة نور الدين كمحاولة عمرية ثانية ووجد بعد عصره بقرنين من يكتب سيرته كنموذج للحاكم المسلم ... وظلت الخلافات السياسية التي ترجع الى العصر الاسلامي الاول حية في نفوس الناس تشعل الخلاف بينهم عبر القرون (فرق الشيعة والسنة ...) وفضل الناس اعتماد حديث غير صحيح على التدبر العقلي ، وهكذا سكن الفكر كله عند منعطف تاريخي محدد ، عند مرحلة واحدة من الزمن ، وعندما يتعلق بها من علم وفكر وقيم . او لنقل انه ، بدل السكون ، كان يتحرك ولكن في حلقة مفرغة تبتدىء من النص لتنتهي في النص ايضا ... وهكذا اخذ الماضي (او التراث) حجما غير طبيعي ، وغير مبرر ضمن الحاضر حتى ابتلعه والغاه وسد منافذ الابداع والتجاوز له ... ان سيرة الفكر منذ اوائل العصر المملوكي حتى اخر العهد العثماني لم تضف كلمة الى الفكر العربي الاسلامي كانت سيرة التأسن السكوني ، واجترار السابقين ودوار الفراغ . العلم نفسه صار من جهة «وظيفة» سياسية اجتماعية وراثية ذات عائدات مادية محددة باهواء السلاطين او بشروط الواقفين ، وصار من جهة اخرى نوعا من الزخرف والزينة. لقد بلغ من سكون الفكر ان كانت الطاقات المبدعة تشغل نفسها احيانا كثيرة بالوان شتى من التجميع او من التطريز في التاليف . الموسوعات الكبرى التي تعلم (صبح الاعشى ، نهاية الارب ، مسالك الابصار ، تاريخ الاسلام ... الخ) ليست الا ضربا واشغالا للفاعلية المبدعة . وتلك المحاولات التلخيصية من الالفيات والتذاكر والشروح والهوامش هي هرب من نوع اخر . بل لقد نرى احيانا بعض المؤلفات العجيبة من مثل رجل جعل مؤلفه على شكل اثني عشر جدولا متجاورا لاثني عشر علما نستطيع ان نقرأها طولانيا فاذا هي علم النحو او العروض او الاصول ... وتستطيع ان تقرأ الجداول المتجاورة عرضانيا فاذا هي علوم اخرى ومباحث في الفقه والتصوف والفرق والتاريخ ... الخ .

(٤) الارهاب الفكري الجماعي وهو الصورة الاخرى المكملة للكبت الجنسي والضغط الاجماعي والاستبداد السياسي . مواقف كلها تنبع من موقف واحد هو قتل التمرد على النظام الحياتي العام . والاخضاع للمواضعات الموروثة . ولقد كان في التاريخ العربي الاسلامي الاول مشاهد من الارهاب الفكري . كان منه ما نعرف مثلا ضد ابي ذر او زمن الحجاج او هشام بن عبد الملك او ايام محنة ابن حنبل من قبل المأمون والمعتصم او قصة مصرع الحلاج او السهروردي ، ولكن لسنا الى هذا النوع من الارهاب الفكري نقصد . هذا الاضطهاد انما كان صراعا فكريا بين مذاهب حية ويستعين فريق منها بقوة الحكم على الاخر . ولكن المضطهد والمضطهد ينطلقان فيها من عقيدة ذاتية توصلا اليها فهما يصطرعان على مستوى واحد من الايمان لاقرارها . ولقد يكون في ذلك عدوان على الحرية الفكرية ولكنه ايجابي ديناميكي حي . وانما نقصد الى الارهاب الاخر : الارهاب الذي يستهدف فرض الخنوع العام والعمل على استمرار المؤسسات الفكرية بالتسليم الجماعي على شكلها الموروث . مؤرخ تحت الحكم الفاطمي ذكر الامويين ببعض الخير فخسر مركزه ومحي تاليفه وآخر في الاندلس تجرأ ان يناقش امية الرسول فاجبر على الهرب من البلاد وثالث (هو احمد الغزالي شقيق حجة الاسلام) خطر له ان يقدر موقف ابليس من وحدانية الله فرمي بالكفر والحجارة ، ورابع وجدت في منزله كتب الفلسفة فأحرقت في السوق بعد ان استتابه الخليفة وخامس انتقد موقف بعض الصحابة من الرسول (وهو موقف خيانة) فهجره الناس حتى اضطر ان يلزم بيته شهرا لا يغادره ... وسادس كابن الخطيب نبش من قبره مرتين للتمثيل بجثته وسابع كابن رشد احرقت مؤلفاته امام الناس ...

ولسنا نعني من هذه الامثلة الدفاع عن مواقف اصحابها وهي مواقف تحتمل الجدل الكثير ، ولكنا نقدمها كنماذج متطرفة تكشف عن الموقف الفكري العام المؤيد من قبل السلطة ومن جمهرة العلماء والرافض لاي شذوذ عليه . انه رعب التغير والرغبة في « سعادة التوافق » وفي انسجام المجتمع الكامل بعضه مع بعض دون اي نغم نشاز والا كان الثمن باهظا ... الانتماء ، بلغ صورته النموذجية المرعبة في تلك العصور للدرجة التي لم يعد فيها اي عالم سوى نسخة ثانية من الاخر ... وكما ربطت القيم الاجتماعية « بالتابو » الديني ربطت كذلك قيم الفكر في كابوس واحد من الضغط الجماعي . ومن شأن هذا النوع من المناخ المغلق ان يخنق كل البراعم ضمن ما يمكن ان نسميه « الذات العليا الجماعية Superego collectif المشبعة بكل محظورات التابو » .

ولسنا هنا في صدد البحث عن العوامل والعلل التي ادت بالموقف الفكري الى هذا الخور والانحلال ، وهي عوامل قد تتصل بمنابع اقتصادية وسياسية معقدة شتى وقد نجد لها مبررات دينية ونفسية دفاعية ، ولكنا نكتفي بالجانب الوصفي لها كواقع حياتي وكظواهر في هذا الواقع . ونضيف ان امما اخرى في مراحل حضارية مماثلة عرفت هذا النوع من الارهاب الفكري الجماعي (وما غاليله واصحابه بالامثلة البعيدة) ولكن التفتح الحضاري انما كان رهنا بالتمرد على ذلك الارهاب ، بالرفض المتكرر والمتزايد له وهو ما لم يحدث في العصور العربية الاسلامية المتاخرة وقد حدث بالضبط عكسه اذ ازداد الضغط احكاما وتسلطا بتحول العلم في العصرين المملوكي والعثماني الى مؤسسة حكومية وموارد خبز ورزق ، يبيعه اصحابه من حكام (مماليك . سلاطين . باشوات . اغوات قواد عسكريين . اسر اقطاعية ومالية) كلهم جديد الدخول على الحضارة العربية الاسلامية . عنيف الحرص على بقاء السلطة في يده اطول فترة ممكنة ، شديد الغيرة على مصالحه واستغلالاته للشعب وعلى زيادتها باستمرار ... ونستطيع ان نقول دون ان نقصد من ذلك معنى الاهانة اطلاقا ان العلماء تركوا دور الريادة والخلق الفكري تماما لياخذوا دور كلاب الحراسة لدى الطبقات الحاكمة .

ثانيا : واما ادوات الفكر : فقد اعانت بدورها على مسيرة الانغلاق الفكري وعلى التقزم ، وكانت بدورها ايضا في جدلية الحياة السبب والنتيجة معا في التخلف الفكري ، لا سيما مع ثباتها الطويل وتمادي القرون عليها قرنا بعد قرن . ونقتصر هنا على ثلاث مشاكل منها : الامية والمدرسة واللغة .

فالامية ازدادت بدل ان تنقص في المجتمع العربي الاسلامي. حركة التعلم والتعليم لو انها استمرت في هذا المجتمع على الوتيرة التي بدات بها في القرون الثلاثة الاولى من الحضارة الاسلامية لكان الارجح ان يختلف مصير المسيرة الفكرية كلها . صحيح ان المساجد كانت وظلت باستمرار مراكز التعليم والتحرير من الامية ، ولكن العلم نفسه اضحى بالتدريج نوعا من « الصنعة » ، نوعا من العمل . وكما يذهب الاجير الى تعلم الحرفة لدى معلمها ، وينشا الفلاح الصغير على محراث ابيه ليتابع الفلاحة بعده ، كذلك صار الذين يقصدون المسجد انما يقصدونه ليكون العلم صنعة لهم ومورد رزق . وكما ان الاسكاف او مثقف الاسلحة او البناء لم يكن يهتم بتعلم صنعة غيره ، كذلك لم يكن الحرفيون والفلاحون ليهتموا بتعلم صنعة « القراءة والكتابة » . ثم

— التتمة على الصفحة ١١١ —

الابعاد التاريخية لازمة التطور الحضاري العربي

تابع المنشور على الصفحة ٢٤

ان ذلك كان ضربا من الترف لا يحتاجونه ويكلفهم الوقت الطويل والمال الجزيل بالانقطاع والرحلة ، ولذلك احتكرته بالتدريج ايضا الطبقات الميسورة . واذا كان المعتصم وهو ابن هارون الرشيد قد نشأ اميا لان اباه لم يكن ينتظر له ولاية الخلافة فلم يأبه بتربيته ، فقد كان احرى ان تكون الطبقات الشعبية على مثل ذلك الزهد في التعلم ولا سيما بعد ذلك العصر .. وهكذا يبدو ان الامية ازدادت انتشارا في العصور التالية كما يبدو ان انشاء « نظام » المدارس النظامية في القرن الخامس بجانب دوافعه السياسية والمذهبية كرد فعل على الدعاية الفاطمية الشيعية ، انما ظهر ايضا بسبب الحاجة الى المتعلمين ، ولهذا السبب انشئت « المدارس » المنفصلة عن المساجد وعين لها المدرسون ورصدت لها ـ وهذا هو الاهم ـ الاوقاف للاساتذة والطلبة كذلك ... غير ان النكبات السياسية والعسكرية لم تهادن الحضارة العربية الاسلامية ابدا . وبعد اكتساح السلاجقة ثم الصليبيين للمشرق العربي جاء المغول ثم التتر . ودمرت القوى الايطالية (من نورمند وغيرهم) صقلية وافريقيا واستنفدت الحروب الطويلة المتصلة التي انتهت بخروج العرب من الاندلس ، كل قوى المغرب والاندلس . وكان طبيعيا في مثل هذه الاحوال ان تهتم الجماهير الشعبية بمطالب الحياة المباشرة ، بالخبز اليومي ... ليصبح « التعليم » ترفا ومطلبا ثانويا . وحين جاء العهد العثماني وضعفت السلطة السياسية جاء « المد » البدوي الذي اصاب الوطن العربي في مختلف الاماكن بالضربة القاضية . فصار الريف كله اميا ، وقطاعات واسعة من اهل المدن (ارباب الحرف والجند والتجار العاديين والباعة) اميين امية كاملة ... حتى كان بعض الناس يحجون مع الحجيج ليرتزقوا من كتابة الرسائل للناس وكانت الرسالة تصل الحي او القرية فيدور اهلها على القارىء الوحيد لديهم او في الجوار ليقرأها ... و « العلماء » انفسهم ، حين صار العلم حكرا لهم ومورد رزق في العهد العثماني صاروا يشجعون على ذلك الاحتكار ويعملون عليه . يروي « محمد كرد علي » انه حين بدأ يتعلم ، وهو من عائلة تجارية ، جاء العلماء الى ابيه ينهونه وينصحونه بالكف ، ويهددونه ... فلكل انسان « حرفته » الموروثة وفيم التعدي على الاخرين ؟ وهكذا تحولت الامية مع القرون والتفشي الى مؤسسة اجتماعية موحدة ما تزال واضحة العقابيل في الحياة العربية اليومية اليوم ، اغريب ان تكون احد الاسباب والنتائج في التخلف الفكري العربي .

ثم ان المدرسة ارتبطت بالسلطة : الذين كانوا يتخرجون من المدارس لا سيما بعد انتشارها منذ القرن الخامس ، كانوا لا يشكلون طبقة من « العلماء » ولكن من « الموظفين » .

المؤسسة التعليمية اضحت ذيلا من ذيول السلطة : تبدأ منها بالبناء والتعيين والاوقاف (وكلها من صنع الطبقات الحاكمة والفنية) وتنتهي اليها : بالخدمات والخلع والتعيين لخطابة الجوامع والامامة والقضاء والافتاء والكتابة في الدواوين لم تعد ذات وظيفة علمية ولكن وظيفة عملية هدفها تسيير امور المجتمع وتأمين جانب الاعمال والاحكام الدينية فيه وجانب الشؤون الحياتية من كتابة وعقود وسجل ضرائب ...

ولما كان التعليم نفسه في تلك المدارس محدودا بشرط الواقف من جهة وبحاجات السلطة من جهة اخرى وبالايديولوجية الفكرية العامة من جهة ثالثة لذلك مشت المدرسة « كمؤسسة » تعليمية الى الانحطاط والجمود بدل المسيرة نحو التوسع والازدهار . حتى المدارس التي كانت كثيرة العدد في العهد المملوكي تضاءلت اعدادها وماتت اوقافها واقفرت من الطلبة وصارت في مطالع القرن العشرين خرائب مهدمة القباب والشبابيك ... تابعة لمديريات الاثار .

واذا كانت هذه قصة « التعليم العالي » في العصور السابقة فان قصة التعليم البدائي كانت اشد قتاما وظلمة . الاباء الذين كانوا يرجون لابنائهم بعض القراءة والكتابة كانوا يجدون « الكتاتيب » حيث يتكون المنهاج من حفظ القرآن خاصة وتعلم بعض الكتابة وبعض الحساب (الهندي) ... « العصا » كانت هي السيد الاكبر في الكتاب ... هذا كله انما ينتهي في ما بين السابعة الى العاشرة من العمر ... حين ينتقل من « عصا » الشيخ (او الخواجه او الملا) الى عصا الحاكم ومن التلقين الاولي الى التلقين الاجتماعي ـ الفكري الاوسع ... ولا يشكل هذا التعليم بالطبع اي مادة من مواد الحياة الفكرية ...

واخيرا تأتي اللغة والتعبير : واذا كانت اللغة اداة الفكر بامتياز ولا تفكير الا بالكلمات فقد عرفت اللغة العربية بدورها عصر تصلب الشرايين والقوالب الجامدة بعد القرون الثلاثة او الاربعة الاولى . لم يكن انتشار السجع المتكلف سوى صورة لفراغ الكلمة من المعنى والمحتوى ، وبالتالي تأكيدا لفراغ الفكر نفسه من الجديد . صاروا يهتمون بالاصداف بدل الاهتمام بالكائنات الحية في داخلها . ثم ان تلك الصور الجاهلية في الشعر والادب من تشبيهات بالسيف والقمر وانواع ادبية في الفخر والهجاء والغزل والتي امتدت على الحياة الادبية في القرون الاولى استمرت هي نفسها بعد ذلك . اغرقت الادب في « اللفظية » المطلقة للدرجة التي اضحى مصطلح « عصور الانحطاط » لاصقا بستة او سبعة قرون على الاقل من الانتاج الادبي الغث ...

وهكذا فان اللغة ، كمستودع لتجارب الماضي اعانت الفكر على توطيد السلفية بقوالبها التي تجمدت كما اعانها الفكر المتجمد على استمرار بقائها قوالب جاهزة . وجاء التعبير الادبي (من نثر وشعر) فكرس هذا التجمد بالانفصال عن الواقع الحياتي للناس ومتابعة الشكل التعبيري القديم ذاته ... وهكذا حدث نوع من الانفصام ضمن الذات العربية ، ما بين الفكر واداته التعبيرية (اللذين اغتربا تمام الغربة عن العصر المعاش (وما بين الواقع الحياتي الذي يحياه الانسان العربي بالفعل ... وكما لم يعد الفكر منتميا الى آلام الناس واحوالهم كانت اللغة امرا غريبا على الناس وكان الادب مجرد لعب في فراغ الالفاظ وعمليات تطريز وفسيفساء ... اما الكلمة فصارت نوعا من « السحر » لا تعني مدلولها ولكن مجرد ترنيمة سحرية . أليس هذا هو الذي يفسر يا ترى قعقعة القوافي التقليدية في عشرات الالوف من القصائد الحديثة ـ القديمة ، ويفسر عدم رفض الجموع اليوم لتناقض كلام الحكام مع الواقع وايمان الناس بأن الكلمة يمكن ان تقوم مقام الفعل وتحل محله اشتقاقا من الايمان بمفعول « الاية » السحري ؟.

* * *

وبعد هذا كله فقد اطل علينا القرن العشرون بمعادلة صعبة اشبه بتدوير المربع في المنطق الشكلي ... كان على العرب فيها ان يتخلوا مرة واحدة عن ايديولوجية فكرية تعتمد الى جانب ركائزها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، على اسس متناقضة كل التناقض مع معطيات الفكر الذي تعززه الحضارة الغربية وتفرضه ، بمختلف الوسائل والقوى،

على العالم ... كما تصطنع وسيلة في التعبير مغربة كل الغربة عنهم من جهة وعن عصرهم نفسه من جهة اخرى بالاضافة الى ان كتلة العرب الكبرى كانت على الامية والجهل المعتق ... لا عتق النبيذ ولكن عتق النبيذ الفاسد المملوء بالدود !

ان البنية الفكرية للمجتمع العربي اليوم ، ان تعقدت كل التعقد، بعد خضوعها قرابة القرن الاخير او يزيد لصدمات الحضارة الحديثة والتفاعل معها واذا ازدوجت العلمية والغيبية فيها فنحن نجدهما يتعايشان معا في عقول الكثيرين . واذا اختلط معنى « العلم » التقليدي بمعنى ال Science الحديث للدرجة التي نسمي فيها بعض هيئاتنا العلمية الكبرى بالمجمع العلمي وهو ليس اكثر من مجمع لغوي ادبي فقهي نحوي ... واذا انسحب الارهاب الفكري الجماعي على العصر وبقيت له بكل مكان اكثر من عصا غليظة وعشرات او مئات الجماعات والمراكز واذا اضحى العرب غرباء عن العصر بسبب حاجز « اللغة » المزدوج غربتهم عن لغتهم التي لا تمثل عصرهم عن اللغات الاجنبية التي تتكلمها الحضارة الغربية الحديثة ... اذا كان اولئك فلان المنطلقات التي تقوم عليها هذه الحضارة لم تجد بعد ركائزها في الذات العربية التي ما تزال تحت وطأة القرون السابقة . انها تحاول كسر قوالب الغيبية والتلقين والسكون امام مقاومة داخلية عنيفة تحتمي احيانا كثيرة وراء اسوار الدين كما تحاول فهم او اللحاق بأيديولوجية الحركة والمنفعة والتحرر والبراغماتية والعمل التي يقوم عليها العصر الحاضر وبمعطياته في الاحساس بقيمة الانسان وبالزمن والالتزام بالتخطيط وبالعلم والتكنولوجيا وبالعدالة التوزيعية وبأن العمل الانساني هو القيمة الاولى .

وبعد هذا فان هذا التاريخ القديم ما يزال برغمنا فينا : انه جزء منا . ولقد يكون في جانب منه عنصر الاصالة في الذات العربية . ولكن هذا التراث الثقيل يضع العرب امام اشكالية مزدوجة : اشكالية الغربة عن التراث نفسه بحكم الانقطاع الطويل عنه والاكتفاء بالجانب السكوني منه دون الجوانب الديناميكية الاخرى واشكالية الغربة عن العصر الذي نقف امامه ، مع الامية وجهل الاسس الفكرية ، وقفة الابكم المبهور امام الالة المعقدة ... وقد خلقت لنا هذه الاشكالية المزدوجة تحديا مزدوج الوجه ايضا : تكييف ذلك التكوين التاريخي الطويل تكييفا بنيويا داخليا من جهة ، واللحاق بالعصر من جهة اخرى ولكن بسرعة مثلثة تعوض احداها عن التخلف والثانية عن الكتلة العربية الواسعة والثالثة عن السرعة المتزايدة لتقدم الحضارة نفسها ... لسنا مطالبين وليس بامكاننا ـ ولو حرصنا ـ ان نخرج من اهاب التاريخ اللصيق بالعظام ولكن المعادلة الصعبة هي توظيف هذا التاريخ كقوة دفع من خلال معطياته ذاتها . كسر حالة الحصار التي يعيشها الانسان العربي منذ عشرة قرون على الاقل وذلك بالفكر التاريخي اي بآلة التاريخ نفسها وبمنطقه ذاته . نقل الانظار والفكر واللغة والعمل من الماضي الى الغد ، من « الفردوس المفقود » الى « الفردوس الموعود » ولكن بالمعنى الجدلي الديالكتيكي لا الاستمراري وبالمعنى الذي يلتزم بالماضي والحاضر والمستقبل معا لانه يعتبر الانسان وحدة كاملة .

على ان التاريخ ، مع الاسف برغم انه المحور في معركة بناء الذات ليس كل مأساة الانسان العربي المعاصر . الابعاد الاخرى التي عليه ان يجاهدها لتجاوز ازمته الحضارية القائمة قد تكون اشد ضراوة. ولكن عليه ان يجاهدها كلها معا وعلى جميع المستويات . أهو المطلب الصعب ؟ ليكن ذلك ولكن عدم الاستجابة له يلقينا على المركب الاصعب: خسارة معركة البقاء .

صيادون في شارع ضيق

رواية بقلم

جبرا ابراهيم جبرا

« صيادون في شارع ضيق » رواية من نوع آخر . فهي « رواية افكار وشخصيات » بالدرجة الاولى ، كما قال عنها المستشرق الانكليزي دنيس جونسن ديفز . ولكن الاهمية في « صيادون » متأتية من تصوير الشخصيات ومن تقديم الافكار والمواقف . والشيء الذي يجعل « صيادون » عملا ادبيا بارعا هو قدرة الكاتب على تكديس جميع هذه الشخصيات والافكار والمواقف في بوتقة صغيرة وجعلها تتحرك في مختلف الاتجاهات ، رغم ان واحدا من هذه الشخصيات لا يشبه الاخر شبها كاملا . اما كيف ينتقل الكاتب من فكرة الى اخرى من دون ما علاقة ظاهرة ، فذلك دليل اخر على براعته » .

صدر حديثا

الدكتور عبدالواحد لؤلؤة